

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة يوسف

عليه السلام

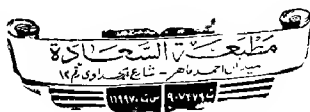
لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوي
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

﴿ ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ﴾

(تابع الجزء الثانی عشر)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .
وبعد : فهذا تفسير تحليلي لمسورة يوسف - عليه السلام - ، توخيت فيه
أن أبرز ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب
عالية ، وهدايات شاملة ، وحكم جليلة ، وتراكم بليغة ...

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، وشفيعا
لنا يوم نلقاه ، آمين - سبحانه - أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدنية المنورة : ١٩ من شوال سنة ١٤٠١ هـ

٢١ من يونيو سنة ١٩٨١ م

المؤلف

سيد محمد طنطاوى

تعريف بسورة يوسف — عليه السلام —

١ — سورة يوسف — عليه السلام — هي السورة الثافية عشرة في ترتيب المصحف ، فقد سبقها في الترتيب سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ...

أما ترتيبها في النزول ، فكانت السورة الثالثة والخسين ، وكان نزولها بعد سورة هود — عليه السلام — .

وعند آياتها إحدى عشرة ومائة آية .

وجه تسميتها هذا الاسم ظاهر ؛ لأنها مشتملة على قصته — عليه السلام — مع إخوته ، ومع امرأة العزيز ، ومع ملك مصر في ذلك الوقت

ولم يذكر اسم يوسف — عليه السلام — في غير هذه السورة سوى مرقين : إحداهما : في سورة الأنعام في قوله — تعالى — : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون الآية ٨٤ .

والثانية في سورة غافر في قوله — تعالى — : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات الآية ٣٤ .

والقول الصحيح أن سورة يوسف جميعها مكية ، ولا التفات إلى قول من قال بأن فيها آيات مدنية ، لأن هذا القول لا دليل عليه .

قال الآلوسى : سورة يوسف مكية كلها على المعتمد ، وروى عن ابن عباس وقتادة أنها قالوا : هي مكية إلا ثلاث آيات من أولها . واستثنى بعضهم رابعة وهي قوله — تعالى — « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » .

وكل ذلك واه جدا لا يلتفت إليه ، وما اعتمدناه كغيرنا - من أنها كلها مكية - هو الثابت عن الخبر - أى عن ابن عباس ، (١) .

٣ - وقد ورد في سبب نزولها روايات متعددة ، منها ما روى عن سعد ابن أبي وقاص أنه قال : أنزل القرآن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فتلاه على أصحابه زمانا ، فقالوا يا رسول الله ، لو قصصت علينا فنزلت سورة يوسف ... (٢)

٤ - طبيعة الفترة التي نزلت فيها هذه السورة : قلنا إن سريرة يوسف كان نزولها بعد سورة هود ، وسبق أن بينا عند تفسيرنا لسورة هود ، أن هذه السورة الكريمة كان نزولها - على الراجح - في الفترة التي أعقبت حادث الإسراء والمعراج ...

ويبدو أن سورة يوسف - أيضا - كان نزولها في هذه الفترة ، التي تعتبر من أشق الفترات في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، إذ تعرض خلالها للكثير من أذى المشركين ، بعد أن فقد - صلى الله عليه وسلم - في هذه الفترة عمه أبا طالب ، وزوجه السيدة خديجة - رضى الله عنها - .

ونزول سورة يوسف في هذه الفترة ، كان من أعظم المسلمات التي واصلها الله - تعالى - بها نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فقد أخبره عما دار بين يوسف وإخوته ، وعما تعرض له هذا النبي الكريم من مصائب وأذى

ولاشك أن في قصة يوسف وما يشهدها ، تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه .

والذي يطالع هذه السورة الكريمة بتدبر وقأمل ، يراها قد اشتملت على أوضح الدلائل ، وأنصع البراهين ، التي تشهد بأن هذا القرآن من عند الله ...

(١) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٧٠ طبعة هنري الدمشقي .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٧٠ .

فقد قصت علينا قصة يوسف - عليه السلام - مع إخوته ومع غيرهم بأسلوب مثوق حكيم ، يهدى النفوس ، ويشرح الصدور ، ويكشف عن الخفايا التي لا يعلمها أحد إلا الله - تعالى - ، ويصور أحوال النفس الإنسانية تصويراً بديعاً معجزاً ...

كما يراها قد سافت مسافت من حكم وأحكام ، وعبر وعظات ، بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم ، وجمال العرض ، حتى إننا لنستطيع أن نقسم أهم الموضوعات التي تحدثت عنها إلى عشرة أقسام .

(أ) أما القسم الأول (١) منها ، فنراها تتحدث فيه عن جانب من فضائل القرآن الكريم ، وعن رؤيا يوسف - عليه السلام - وعن نصيحة أبيه له بعد أن تصفا عليه ...

قال - تعالى - دأر . تلك آيات الكتاب المبين . إنما أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين . إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين (٢)

(ب) وفي القسم الثاني منها نراها تحدثنا عن مسكر إخوة يوسف به ، وحسدهم له ، وتأمرهم على الانتقام منه ، وإجماعهم على أن يلقوا به في الجب ، وتنفيذهم لذلك بعد خداعهم لأبيهم ، وزعمهم له بأنهم سيحافظون على أخيه يوسف ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكي كل ذلك بأسلوبه البديع المعجز فيقول :
لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب

(١) الآيات من ١ - ٦ (٢) الآيات من ٧ - ١٨ .

(٣) الآيات من ١٩ - ٢٩

إلى أيدينا منا ونحن عصبه، إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف وأطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين

إلى أن يقول - سبحانه - : وجاءوا على قبيصه بدم كذب ، قال يل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون .

(ج) ثم نراها في القسم الثالث منها تحدثنا عن انتمثال السيارة ليوسف من الجب ، وعن بيعهم له بثمان بخص دراهم معدودة ، وعن وصية من اشتراه لامرأته بإكرام مشواه ، وعن محنته مع تلك المرأة التي راودته عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، وعن خروجه من هذه المحنة بريئا ، نقي المرض ، طاهر الذيل ... بعد أن شهد ببراءته شاهد من أهلها ...

قال - تعالى - : وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال بإشترى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليهم بما يعملون . وشروه بثمان بخص دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا

إلى أن يقول - سبحانه - : وراودته التي هو في بينها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ...

ثم يختم - سبحانه - هذا القسم من السورة بحكاية ما قاله الزوج لامرأته وليوسف ، بعد أن تبين له صدق يوسف وكذب امرأته فيقول : فلما رأى قبيصه قد من دبر قال إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين .

ثم تحدثنا السورة بعد ذلك في القسم الرابع منها ، عن شيوخ خبر امرأة

(١) الآيات من ٣٠ - ٣٥ .

العزیز مع فتاها ، و عما فعلته تلك المرأة مع من أشاع هذا الخبر ، وعن جـ
یوسف - علیه السلام - إلى ربه يستجير به من كيد هؤلاء النسوة ..
قال - تعالى - حاكيا هذا المشهد بأسلوب معجز : « وقال نسوة في المدین
امرأة العزیز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، إنا لنراها في ضلالتنا
مبین . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وقالت أخر
علین ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن حاش لله ما هذا بشرا إ
هذا إلا ملك کریم .

قالت فذلکین الذی لمتانی فیہ ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، وک
لم یفعل ما أمره لیسجنن ولیکونا من الصاغرين . قال رب السجن أحب إ
مما یدعوننی إلیه ، وإلا تصرف عنی کیدهن أصب إلیهن وأکن من الجاهلین
فاستجاب له ربه فصرف عنه کیدهن لأنه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من به
مارأوا الآيات لیسجننه حتی حیین ، .

ثم تحدثنا السورة الکريمة بعد ذلك فی القسم^(١) الخامس منها ، عن یوسف
السجين المظلوم ، وكيف أنه لم یمنعه السجن من دعوة رفاقه فیہ إلى وحدان
الله ، وإلى إخراج العباد له - سبحانه - ...
« یا صاحبی السجن أأرباب متفرقون خیر أم الله الواحد القهار
ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أقم وآباؤکم ما أنزل الله بها من سلطان
إن الحکم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكث
الناس لا یعلمون »

(و) ثم تحدثنا السورة الکريمة فی القسم^(٢) السادس منها عن الرقيا المفرد
التي رآها ملك مصر فی ذلك الوقت ، وكيف أن حاشيته عجزت عن تفسيرها
ولكن یوسف الصديق فسر لها تفسيراً صحیحاً أعجب الملك ، وحمله على دعوة

للالتهاء به ، إلا أن يوسف - عليه السلام - أبى الالتقاء به إلا بعد أن يحقق الملك في قضيته بنفسه ، ويعلن برأته على رؤس الأشهاد . . .

وبعد أن استجاب الملك لطلب يوسف ، وثبتت برأته - عليه السلام - حضر ممززا مكرما وقال للملك بعزة وإباء : « اجعلني على خزان الأرض إلى حفيظ عليم »

استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي هذا المشهد بأسلوبها الزاخر بالمحاورات والمفاجآت ، فنقول : « وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . وأما الملائة أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذي نجا منهما وأدكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون »

وبتةى هذا المشهد ببيان سنة من سنن الله - تعالى - التي لا تتخلف ، والتي تتمثل في حسن عاقبة المزمعين حيث يقول - سبحانه - : « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يقبوا منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خبر للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

ثم تنتقل السورة الكريمة في القسم السابع^(١) منها إلى الحديث عن اللقاء الأول الذي تم بين يوسف وإخوته . بعد أن حضروا من بلادهم بفلسطين إلى مصر بلبثهم الزاد والطعام . . . وكيف أنه عرفهم دون أن يعرفوه ، وكيف أنه - عليه السلام - طلب منهم بعد أن أكرمهم أن يحضروا إليه من بلادهم ومعهم أخوهم من أبيهم - وهو شقيقه بنيامين - . . .

وكيف أن أباهم وافق على إرسال بنيامين معهم بعد أن أخذ عليهم العهد والمواثيق لكي يحافظوا عليه ...

استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي كل ذلك فنقول : وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنى أوفى السكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لنفاعلون . وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون . فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا السكيل فarsل معنا أخانا نكسل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فانه خير حافظا وهو أرحم الراحمين

ثم حدثنا السورة الكريمة في القسم الثامن^(١) منها عن اللقاء الثاني الذي تم بين يوسف وإخوته ، بعد أن حضروا إليه في هذه المرة ومعهم بنيامين . شقيق يوسف ، وكيف قام يوسف بالتحرف عليه ، ثم كيف احتجزه عنده بحيلة دبرها بإلهام من الله - تعالى - ، وكيف رد على أخوته الذين طلبوا منه أن يأخذ أحدهم مكان بنيامين ...

وماذا قاله يعقوب - عليه السلام - بعد أن عاد إليه أبنائه ، وليس معهم بنيامين

استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي كل هذه المشاهد والأحداث فتقول :

ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال لى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أبتها العير لأنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون . قالوا

ففقده صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا قاتله لقد علمتم
ما جئنا لنفسد في الأرض وما كننا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين .
قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم
قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان
ليأخذ أعاءه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل
ذی علم علیم

ويتمى هذا القسم بقول يعقوب - عليه السلام - لأبنائه بعد أن عادوا
إليه وليس معهم أخوهم بنيامين : قال بل سوات لكم أنفسكم أمرا فصبر
جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال
يا أسنى على يوسف وأبيضت عينا من الحزن فهو كظيم . قالوا قاتله تفتأ تذكر
يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثي
وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسبوا من يوسف
وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

(ط) ثم حدثنا السورة الكريمة بعد ذلك في القسم التاسع (١) منها عن
اللقاء الثالث والآخر بين يوسف وإخوته ، فحكيت لنا أن يوسف - عليه
السلام - كشف لإخوته عن نفسه في هذا اللقاء ، وأمرهم بأن يذهبوا بقميصه
ليلقوا به على وجه أبيه كما أمرهم أن يعودوا إليه ومعهم جميع أهلهم .
كما حكيت لنا لقاء يوسف بأبيه ، وإكرامه لها ، وشكره لله - تعالى -
على ما وهبه من نعم ...

قال - تعالى - حاكيا ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يوسف وأبيه
في هذا اللقاء : فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا
ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين .

قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أئنتك لآنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه من يشق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ...

لذهبوا بقميصى هذا فالقوه على وجه أبى يأت بصيرا ، وأتوني بأهلكم أجمعين ...

فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ثم ختم - سبحانه - قصة يوسف بهذا الدعاء الذى حكاه - سبحانه - عنه فى قوله : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت ولي فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

(ي) أما القسم العاشر^(١) والآخر من السورة الكريمة ، فقد كان تعقيبا على ما جاء فى تلك القصة من حكم وأحكام ، ومن عبر وعظات ، ومن آداب وهدايات ...

وقد بين - سبحانه - فى هذا القسم ما يدل على أن القرآن من عند الله ، وما يشهد بصدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ...

كما بين - سبحانه - وظيفه الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وموقف المشركين من دعوته ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - ليس بدعا من الرسل ، وأن العاقبة ستكون له ولأتباعه المؤمنين .

قال - تعالى - « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . وما أكره الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما نسألكم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأين من آية فى السموات والأرض يعمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ... »

ثم يختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بقوله : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء » ، وهدي ورحمة لقوم يؤمنون » .

٦ - هذا عرض يحمل لأهم الموضوعات التي اشتملت عليها سورة يوسف - عليه السلام - ، ومن هذا العرض نرى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمور من أهمها ما يأتي :

(١) إبراز الحقائق والهدايات ، بأسلوب المحاورات والمجادلات والمناقشات ومن مظاهر ذلك :

المحاورات التي دارت حول إخوة يوسف في شأن الانتقام منه ، والتي منها قوله - تعالى - : « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو أطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ، وتكفونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لا تغفلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين

والمحاورات التي دارت بينهم وبين أبيهم في شأن اصطحابهم ليوسف ، والتي منها قوله - تعالى - : « قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إني لبحراني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون » .

والمحاورات التي دارت بين يوسف وإخوته ، بعد أن عرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن ترددوا عليه ثلاث مرات للحصول على حاجتهم من الزاد والتي منها قوله - تعالى - : « فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مستأنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا السكيل وتصدق علينا إن الله

يجزى المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أتتم جاهلون . قالوا أئنا لك يا يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا نال الله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لحاظين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

وهكذا نجد السورة الكريمة زاخرة بأسلوب المحاورات والمناقشات والمجادلات . نارة بين يوسف وأخوته ، ونارة بين إخوته فيما بينهم ، ونارة بينهم وبين أبيهم ، ونارة بين يوسف وامرأة العزيز ، ونارة بينه وبين ملك مصر فى ذلك الوقت

وهذه المحاورات التى حفلت بها السورة الكريمة ، قد أكسبتها لونا من العرض المشوق ، الذى يجعل القارىء لها يتعجل حفظ كل موضوع من موضوعاتها ، ليصل إلى الموضوع الذى يليه . . .

وهذا الأسلوب فى عرض الحقائق من اسمى الأساليب التى تعين القارىء على حفظ القرآن الكريم ، وعلى تدبر معانيه ، وعلى الانتفاع بهداياته . . .

٢ - إبرازها لجوهر الأحداث وإلبائها ... أما تفاصيل هذه الأحداث ... فترك مرفقا لفهم القارىء وفطنته ، وسلامة تفكيره ، وحسن تدبره لكلام الله - تعالى - . . .

وهذا اللون من العرض للأحداث ، يسمى فى عرف البلغاء ، بأسلوب الإيجاز بالحذف والقارىء لهذه السورة الكريمة يتدبر وتأمل ، يراها على رأس السور القرآنية التى كثر فيها هذا الأسلوب البليغ .

فلا قوله - تعالى - : : وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سوات لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل معطوف على كلام محذوف يفهم من السياق .

والتقدير : وبعد أن ألقى لإخوة يوسف به في الحب ، وانصرفوا لهؤنهم
 « جاءوا على قيصة يدم كذب ، لكي يتدعوا أباهم ، فلما أخبروه بأن الذئب
 قد أكله » قال ، بل سؤلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل

و كذلك قوله - تعالى - « قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه . .
 مترتب على كلام محذوف يفهم من سياق الآيات . . .

والتقدير : وبعد أن سمع ماقالته النسوة بشأنه عندما دخل عليهن بأمر
 من امرأة العزيز ، وسمع تهديد هذه المرأة له بقولها : « قالت قدلسكن الذي
 ملتغنى فيه ولقد راددته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ماأمره ليسجنن
 وليسكونا من الصغارين ، .

بعد أن سمع يوسف كل ذلك ، وتيقن من مكرهن به : « لجأ إلى ربه
 مستجيرا به من كيدهن فقال : « رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه

وأيضا قوله - تعالى - « وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم
 بتأويله فآرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان

يعتبر من بديع أسلوب الإيجاز بالحذف ، إذ تقدير الكلام :

وبعد أن عجز الملأ عن تفسير رؤيا الملك ، وقالوا له : إن رؤياك أضغاث
 أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ، « قال الذي نجا منهما ، أي : من
 صاحبي يوسف في السجن وهو الساقى « وأدكر بعد أمة ، أي وتذكر بعد
 نسيان طويل « أنا أنبئكم بتأويله فآرسلون ، إلى من عنده تفسير هذه الرؤيا
 تفسيرا صحيحا - وهو يوسف - ، فاستجابوا له وأرسلوه إلى يوسف ، فذهب
 إليه في السجن ، فلما دخل عليه قال له يا يوسف يا أيها الصديق ، أفتنا في
 سبع بقرات سمان الخ .

وهذا الأسلوب الذي زخرت به السورة الكريمة ، وهو أسلوب الإيجاز

بالخذف، من شأنه أنه ينشط العقول ، ويبعثها على التأمل والتدبر فيما تقرؤه .
ويعينها على الاتعاظ والاعتبار ...

وهو أسلوب أيضا تقتضيه هذه السورة الكريمة ، لأنها تتحدث عن قصة
نبي من أنبياء الله - تعالى - ، والحديث عن ذلك يستلزم إبراز جوهر
الأحداث ولبائها ، لا إبراز تفاصيلها وملافاة من ذكره .

فاستهل السورة الكريمة على هذا الأسلوب البليغ ، هو من باب رعاية
الكلام لمقتضى الحال ، وهو أصل البلاغة وركنها الرئيس .

٣ - السورة الكريمة اهتمت اهتماما واضحا بشرح أحوال النفس البشرية
وتحليل ما يصدر عنها في حال رضاها وغضبها ، وفي حال حبها وبغضها ، وفي
حال فرحها وحزنها ، وفي حال أملها ويأسها ، وفي حال صلاحها وانحرافها ،
وفي حال غناها وفقرها ، وفي حال عسرها ويسرها ، وفي حال صفاتها
وحقدما ...

وقد حدثتنا عن المخصيات التي وردت فيها حديثا صادقا أميناً ، كشفت
لنا فيه عن جوانب متعددة من أخلاقهم ، وسلوكهم ، وميولهم ، وأفكارهم ...
وأعطت كل واحد منهم حقه في الحديث عنه .

(١) فيوسف - عليه السلام - وهو الشخصية الرئيسة في القصة -
حدثتنا عنه حديثا مستفيضاً نستطيع من خلاله ، أن نرى له - عليه السلام -
مناقب ومزايا متنوعة من أهمها ما يأتي :

١ - إمتلاكه لنفسه ولشهوته مهما كانت المغريات ، بسبب خوفه لمقام ربه ،
ونبيه لنفسه عن الهوى ...

ولا أدل على ذلك من قوله - تعالى - : « وراودته التي هو في بينها عن نفسه »
و« غلقت الأبواب وقالت هيت لك » ، قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ،
إنه لا يفلح الظالمون ... ،

قال الشيخ القاسمي : قال الإمام ابن القيم مالم يخلصه : لقد كانت هناك دواعي متعددة تدعو يوسف إلى الاستجابة لطلب امرأة العزيز منها : باركبه الله في طبع الرجل من ميله إلى المرأة ...

ومنها : أنه كان شابا غير متزوج .. ومنها : أنها كانت ذات منصب وجمال ... رأنها كانت غير آتية ولا ممتنعة .. بل هي التي طلبت وأرادت وبذلت الجهد

ومنها : أنه كان في دارها وتحت سلطانها ... فلا يخشى أن تنم عليه ... ومنها : أنها استعانت عليه بأئمة المسكر والاحتيال فأرته لباهن ، وشمكت حالها لبهن ...

ومنها : أنها قرعته بالسجن والصغار إن لم يفعل ما تأمره به ... ومنها : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والقوة ما يجعله يفرق بينه وبينها ... ومع كل هذه الدواعي ، فقد آثر يوسف مرضاة الله ومراقبته ، وحملة خوفه من خالفه على أن يختلر السجن على ارتكاب ما يفضيه ... (١)

٢ - سببه الجليل على النحن والبلايا ، ولجوؤه إلى ربه ليستجير به من كيد امرأة العزيز وصواحبها : « قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلِينَ » ...

٣ - نشره للدين الحق ، ودعوته لعبادة الله وحده ، حتى وهو بين جدران السجن ، فهو القائل لمن معه في السجن : « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أقم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » ...

٤ - حسن تدبيره للأمور ، وتوصله إلى ما يريده بأحكام الأساليب ،

وخرضه الشديد على إنقاذ الأمة مما يضرها ويعرضها للهلاك ، قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم ثم تفروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون

٥ - عزة نفسه ، وسمي خلقه ، فقد أبى أن يذهب لمقابلة الملك إلا بعد إعلان برائه ، وقال الملك انتوني به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فأسأله بما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم

٦ - نعمة الله ، ومعرفة لنفسه قدرها ، وطالبه المنصب الذي يناسبه ، ويحق بقدرته على القيام بحقوقه ، قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم . . .

٧ - ذكاؤه وفطنته ، فقد تعرف على إخوته منع طول فراقه لهم : فوجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون

٨ - عفوه وصفحه عن أساء إليه ، قال لا تثرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

٩ - وفاؤه لأسرته ولعشيرته إذ ذهبوا يقيمى هذا فأفوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين . . .

١٠ - شكر الله - تعالى على نعمه ومننه ، رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفى مسلماً وألحقني بالصالحين ، هذا جانب من حديث السورة الكريمة عن يوسف - عليه السلام - ، وهو حديث يدل على أنه كان في الذروة العليا من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم

١١ - (ب) ونحدث السورة الكريمة عن يعقوب - عليه السلام - قد كرت من بين ما ذكرته ، صفات الصبر الجميل . والأمل في رحمة الله مهما اشتدت المطاوب ، والحرص على سلامة أبنائه من كل ما يؤذيهم حتى ولو أسأوا إليه ،

والنظر إلى الأمور بهين تختلف عن عيون أبنائه ، والحكم عليها بحكم يختلف
عن أحكامهم ...

يذل على ذلك قوله - تعالى - وجاءوا على فيصه بدم كذب قال بل سولت
لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل . .

وقوله - تعالى - د قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله
أن يأتيني بهم جميعا

وقوله - تعالى - د وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب
متفرقة ...

وقوله - تعالى - د ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا
أن تفقدون ، قالوا تا الله إنك لقمي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه
على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون . .

وتحدثت عن إخوة يوسف حديثا مستفيضا ، تبدو فيه غيرتهم من يوسف ،
وحسدهم له ، وتأمرهم على حياته ، وحقدهم عليه حتى وهو بعيد عنهم ... ثم ندبهم
في النهاية على ما فرط منهم في حقه بعد أن مكن الله له في الأرض ...

نرى ذلك في مثل قوله - تعالى - د اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا
بطل لكم وجه أيكم ...

وفي قوله د قالوا تا الله تفتأ قد كر يوسف حتى تمكون حرسا أو تمكون
من الهالكين . .

وفي قوله - سبحانه - د قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . . .
وفي قوله - تعالى - د قالوا تا الله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لحاطئين .
وتحدثت عن امرأة العزيز حديثا يكشف عن حال المرأة عندما تحب . .
وكيف أنها في سبيل الحصول على رغباتها تحطم كل المواقف النفسية والاجتماعية . .
وتستخدم كل الوسائل التي تظن أنها ستوصلها إلى مرادها . حتى ولو كانت هذه

الوسائل تخالف ما عرف عن المرأة من أنها حريصة على أن تكون مطلوبة من الرجل لاطالبة له ...

(هـ) وتحدثت عن العزيز حديثاً قصيراً يناسب حجمه وسلوكه وقيلد شعوره ، فهو مع إيقانه بخطأ امرأته لم يزد عن أن قال لـيوسف ولها يوسف أعرض عن عدا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ، .

(و) وتحدثت عن ملك مصر في ذلك الوقت وعن البيئة التي وصل الحال بها أن تزج بيوسف الهوى في السجن ، إرضاء لشهوات النفوس الجامحة ...

قال - تعالى - ثم بدلهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ، . وهكذا نجد السورة الكريمة تحدثنا عن نماذج من البشر ، فتصف كل نموذج بما يناسبه من صفات ، بصدق وأمانة ، ونحكم عليه بالحق الذي يناسبه .

٤ - قال صاحب الظلال ما ملخصه : والسورة كلها قصة واحدة عليها الطابع المكي واضحاً في موضوعها وفي جواهرها وفي ظلالها وإيماءاتها ، بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة ...

ففي الوقت الذي كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعاني من الوحشة والغربة والانعطاع في جاهلية قريش - منذ عام الحزن - كان الله - تعالى - يقص عليه قصة أخ له كريم هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وهو يعاني صنوفاً من المحن والابتلاءات ...

محنة كيد الإخوة ، ومحنة الحب ، ومحنة الرق ، ومحنة كيد امرأة العزيز ، ومحنة السجن ، ثم محنة الرخاء والجاه والسلطان ...

فلا عجب أن تكون هذه السورة بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم ، ومن التعقبات عليها بعد ذلك ... تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه عما أصابهم من أعدائهم ، وتسرية لقلوبهم ، وتطهيناً لنفوسهم .

ولكان الله - تعالى - يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم - : كما أخرج يوسف من حوض أبيه لمواجهة هذه الابتلاءات كلها ، ثم ليتهى بعد ذلك إلى النصارى والمسلمين ...

كذلك أنت يا محمد ستخرج من بلدك مكة مهاجرا ... ثم تعود إليها في الوقت الذي يشاؤه الله ظافرا منتصرا ، (١) .

وبعد : فهذا تعريف لسورة يوسف ، رأينا أن نسوقه قبل البدء في تفسيرها ، لعله يعين على فهم ما اشتملت عليه من حكم وأحكام . ومن عبر وعظات ...
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

« التفسير »

قال الله تعالى : « الر • تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُنْهِي نَعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْهَى عَلَى أَبِيكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) » .

افتتحت سورة يوسف - عليه السلام - ببعض الحروف المقطعة . وقد سبق أن تكلمنا عن آراء العلماء في هذه الحروف في سور: البقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس، وهود .

وقلنا مالمخصه : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب . أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن الكريم .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله - تعالى - : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تقولون منه - كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي ننظمون منها حروفكم ...

فإن كنتم في شك من كونه متزلاً من عند الله فهاثوا مثله ، وادعوا من
شتمتم من الخلق السكى يعاونكم في ذلك .

ومما يشهد لصحة هذا الرأي : أن الآيات التي تلى هذه الحروف المقطعة
تراها تتحدث - صراحة أو ضمناً - عن القرآن الكريم وعن كونه من عند
الله - تعالى - وعن كونه معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - ففى مطلع
سورة البقرة : « ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ... » ،

وفى مطلع سورة آل عمران : « ألم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل
عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل ... » ،

وفى أول سورة الأعراف : « ألمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك
حرج منه » ،

وفى أول سورة يونس : « أأر . تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان
للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن
لهم قدم صدق عند ربهم » ،

وفى أول سورة هود : « أأر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن
حكيم خبير ... » ،

وهكذا نجد أن معظم الآيات التي تلى الحروف المقطعة ، منها ما يتحدث
عن أن هذا الكتاب من عند الله - سبحانه - ومنها ما يتحدث عن وحدانية
الله - تعالى - ، ومنها ما يتحدث عن صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم -
فى دعوته

وهذا كله لتنبية الغافلين إلى أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه المعجزة
الخالدة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم قال - تعالى - « تلك آيات الكتاب
المبين ، . »

وه تلك ، اسم لإشارة ، المشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن
الكريم ، ويندرج فيها آيات السورة التى معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكتاب . وأصل الكتاب ضم أديم إلى آخر
بالخطاطة . واستعمل عرفا في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط . والمراد به
القرآن الكريم .

والأمين ، أى الواضح الظاهر من أبان بمعنى بان أى ظهر .
والمعنى : تلك الآيات التى تلوها عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه
السورة وفى غيرها ، هى آيات الكتاب الظاهر أمره ، الواضح إعجازه ، بحيث
لا تشبه على العقلاء حقائقه ، ولا تلتبس عليهم هداياته .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب الكريم ، مع أنها لم تكن قد نزلت
جميعها ، لأن الإشارة إلى بعضها كإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد
الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - صلى الله عليه وسلم بنزول
القرآن عليه ، كما فى قوله ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، ووعد الله - تعالى -
لا يتخلف .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزاله بلسان عربى مبين فقال : « إنا أنزلناه
قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » .

أى : إنا أنزلنا هذا الكتاب الكريم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم -
بلسان عربى مبين ، لعلكم أيها المستكفون بالإيمان به ، تعقلون معانيه ،
وتفهمون ألفاظه ، وتنتفعون بهداياته ، وتدركون أنه ليس من كلام البشر ،
ولأنما هو كلام خالق القوى والقدرة وهو الله - عز وجل - .

فالضمير فى « أنزلناه » يعود إلى الكتاب ، وقرآنا حال من هذا الضمير
أو بدلا منه .

والتأكيد بحرف إن متوجه إلى خبرها وهو أنزلناه ، للرد على أولئك
المشركين الذين أنكروا أن يكون هذا القرآن من عند الله .
وجملة « لعلكم تعقلون » بيان لحكمة إنزاله بلغة العرب .

وحذف مفعول « تعقلون » ، الإشارة إلى أن نزوله بهذه الطريقة ، يترتب عليه حصول تعقل أشياء كثيرة لا يحصىها العد .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه قوله : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » ، وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات ، وأبينها وأوسمها ، وأكثرها تأدية المعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وفي أشرف شهور السنة ، فأكمل له الشرف من كل الوجوه ، (١) .

وقال الجبل : واختلف العلماء هل يمكن أن يقال في القرآن شيء غير عربي : قال أبو عبيدة : من قال بأن في القرآن شيء غير عربي فقد أعظم على الله القول . واحتج بهذه الآية .

وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة بأن فيه من غير العربي مثل : سجيل ، والمشكاة ، واليم ، وإستبرق ونحو ذلك .

وهذا هو الصحيح المختار ، لأن هؤلاء أعلم من أبي عبيدة بلسان للعرب . وكلا القولين صواب . إن شاء الله .

ووجه الجمع بينهما أن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ، ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة ، وإن كانت غير عربية في الأصل ، ولكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم ، وصارت لهم لغة ، فظهر بهذا البيان صحة القولين ، وأمكن الجمع بينهما ، (٢) ، ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن مشتمل على أحسن القصص وأحكمها وأصدقها فقال - تعالى - : نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٣ . طبعة دار الشعب

(٢) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٤٣٢ .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : القصص : اتباع الخبر بعضها بعضا ، وأصله في اللغة المتابعة قال - تعالى - ، وقالت لأخته قصيه . . ، أى اتبعى أثره . وقال - تعالى - : « فارتد على آثارهما قصصا » ، أى : اتباعا . وإنما سميت الحكايا قصصا ، لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا ، كما يقال : تلا فلان القرآن ، أى قرأه آية فآية (١) . . .

والمعنى : نحن نقص عليك - أيها الرسول الكريم - أحسن القصص أى : وأحسن أنواع البيان ، وأوفاه بالغرض الذى سيق من أجله .

ولما كان قصص القرآن أحسن القصص لاشتماله على أصدق الأخبار وأبلغ الأساليب ، وأجمعها للحكم والعبر والوظائف .

والبإاء فى قوله « بما أوحينا إليك » هذا القرآن ، للسببية متعلقة بنقص و « ما » مصدرية .

أى : نقص عليك أحسن القصص ، بسبب إيجائنا إليك هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى هو فى الذروة العلم فى بلاغته وتأثيره فى النفوس .

وجملة « وإن كنت من قبله لمن الغافلين » فى موضع الحال من كاف الخطأ فى « إليك » ، و « إن » مخففة من الثقيلة ؛ واسمها ضمير الشأن محذوف .

والضمير فى قوله « من قبله » يعود إلى الإيحاء المفهوم من « قو » ، أوحينا ، .

والمعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب ما أوحيناه إليك . هذا القرآن .

والحال أنك كنت قبل إيجائنا إليك بهذا القرآن ، من الغافلين عن

تفاصيل هذا القصص ، وعن دقائق أخباره وأحداثه ، شأنك في ذلك شأن قومك الأميين .

قال - تعالى - تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ، .

ثم حكى - سبحانه - قصة يوسف - عليه السلام - كشال لأحسن القصص فقال - تعالى - ولما قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، .

و . إذ ، ظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر

ويوسف : اسم أعجمى ، مشتق - كما يقول الألوسى - من الأسف ، وسمى به لأسف أبيه عليه .

وأبوه : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : للكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم .

وقوله : يا أبت ، أصله يا أبى ، فحذفت الباء وعوض عنها تاء التأنيث ، ونقلت لإيها كسرة الباء ، ثم فتحت الباء لمناسبة تاء التأنيث .

والمعنى : اذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - وقت أن قال يوسف لأبيه ، يا أبت إنى رأيت فى منامى أحد عشر كوكبا ، تسجد لى . ورأيت كذلك ، الشمس والقمر ، لى ساجدين .

ولم يدرج الشمس والقمر فى الكواكب مع أنها منها ، لإظهار مزيتها ورفعا لشأنها ، وجملة رأيتهم لى ساجدين ، مستأنفة لبيان الحالة التى رآهم عليها .

وأجريت هذه الكواكب مجرى العقلاء فى الضمير المختص بهم ، لوصفها

يوصفهم حيث إن السجود من صفات العقلاء ، والحرب تجمع مالا يعقل جر من يعقل إذا أنزلوه منزله .

قال ابن كثير : وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام : أن الأحده عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا ، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه .

روى هذا عن ابن عباس ، والضحاك . وقتادة ، وسفيان الثوري ، وعبد الرحمن بن زيد ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة ، وقيل بعد ثمانين سنة ، وذلك حين رفع أبويه على العرش ، وهو سريره . وإخوته بين يديه .. وخسروا سجدا وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقا ... ، ثم حكى — سبحانه — بعد ذلك ما قاله يعقوب لابنه يوسف بعد أن قص عليه رؤياه فقال : « قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للانسان عدو مبين ، » .

وقوله « يا بني » تصغير ابن . والتصغير هنا سببه صغر سنه مع الشفقة عليه ، والتلطف معه .

وقوله « رؤياك » من الرؤيا التي هي مصدر رأى الحلبية الدالة على ما وقع للانسان في نومه ، أما رأى البصرية فيقال في مصدرها الرؤية .

وقوله « فيكيدوا لك ... » من الكيد وهو الاحتيال الخفي بقصد الإضرار والفعل كاد يتعدى بنفسه ، فيقال : كاده يكيد كيدا ، إذا احتال لإهلاكه ولتضمينه معنى احتال عدى باللام .

والمعنى : قال يعقوب لابنه يوسف — عليهما السلام — بشفقة ورحمة بعد أن سمع منه ما رآه في منامه : « يا بني ، لا تخبر إخوتك بما رأيت في منامك »

فإنك إن أخبرتهم بذلك احتالوا لإهلاكك احتيالا خفيسا ، لا قدرة لك على مقاومته أو دفعه .

وإنما قالوا له ذلك ، لأن هذه الرؤيا تدل على أن الله - تعالى - سيعطي يوسف من فضله عطاء عظيما ، ويهبه منصبا جليلا ، ومن شأن صاحب النعمة أن يكون محسودا من كثير من الناس ، نخاف يعقوب من حسد إخوة يوسف له ، إذا ما قص عليهم رؤياه ، ومن عدوانهم عليه .

والتموين في قوله : كيدا ، للتعظيم والتهويل ، زيادة في تحذيره من قص الرؤيا عليهم .

وجملة : إن الشيطان الإنسان عدو مبين ، واقعة موقع التعليل للنهي عن قص الرؤيا على إخوته ، وفيها إشارة إلى أن الشيطان هو الذي يغريهم بالسكيدله إذا ما قص عليهم ما رآه ، وبذلك لا يشير في نفسه السكرادة لإخوته .

أى : لا تخبر إخوتك بما رأيته في منامك ، فيحتالوا للاضرار بك حسدا منهم لك ، وهذا الحسد يغرسه الشيطان في نفوس الناس ، لتتولد بينهم العداوة والبغضاء ، فيفرح هو بذلك ، إذ كل قبيح يقوله أو يفعله الناس يفرح له الشيطان ..

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاما منها :

أنه يجوز للإنسان في بعض الأوقات أن يخفى بعض النعم التي أنعم الله بها عليه ، خشية حسد الحاسدين ، أو عدوان المعتدين .

وأن الرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذين زكت نفوسهم فيكشف لهم عما يريد أن يطلعهم عليه قبل وقوعه .

ومن الأحاديث التي وردت في فضل الرؤيا الصالحة ما رواه البخاري عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : أول ما أبدى به رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصادقة ، فبكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ...

وفي حديث آخر : « الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح ، جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة »

وفي حديث ثالث : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، وهي الرؤيا الصالحة للرجل الصالح ، يراها أو ترى له ، (١) » .

كذلك أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ..

قال الآلوسی عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : والظاهر أن القوم - أي إخوة يوسف - كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، ويؤيد هذا أنهم لم يكونوا أنبياء .

وهذا ما عليه الأكثر من سلفا وخلفا . أما السلف فإنه لم ينقل عن أحد من الصحابة أو التابعين أنه قال بنبوتهم ..

وأما الخلف فكثير منهم نفى عنهم أن يكونوا أنبياء ، وعلى رأس من قال بذلك الإمام ابن تيمية ، في المؤلف له خاص بهذه المسألة ، وقد قال فيه :

الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار ، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء وليس في القرآن ولا في السنة ما يشير إلى أنهم كانوا أنبياء (٢)

ثم حكى - سبحانه - ما توقعه يعقوب لابنه يوسف من خير وبركة فقال : « وكذلك يجتنبك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسماعيل ، إن ربك علي حكيم .. »

(١) لمعرفة المزيد عن الرؤيا المنامية راجع تفسير القاسمي ج ٩ ص ٥٠٨

(٢) تفسير الآلوسی ج ١٢ ص ١٦٤

والكاف في قوله ، وكذلك ، حرف تشبيه بمعنى مثل ، وهي داخلة على كلام محذوف .

وقوله : يجتبيك ، من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار ، مأخوذ من جبيت الشيء إذا اخترته لما فيه من النفع والخير .

و رد تأويل الأحاديث ، معناه تفسيرها تفسيراً صحيحاً ، إذ التأويل مأخوذ من الأول بمعنى الرجوع ، وهو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه .

والأحاديث جمع تكسير مفردة حديث ، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحدث بها .

والمعنى : وكما اجتبتك ربك واختارك لهذه الرؤيا الحسنة . فإنه - سبحانه - يجتبيك ويختارك لأمر عظام في مستقبل الأيام ، حيث يهبك من صدق الخس ، ونفاذ البصيرة ، ما يجعلك تدرك الأحاديث إدراكاً سليماً ، وتعبر الرؤى تعبيراً صحيحاً صادقاً .

و يتم نعمته عليك ، بالنبوة والرسالة والرياسة ، وعلى آل يعقوب وهم إخوته وذريتهم ، بأن يسبح عليهم الكثير من نعمه .

د كما أتمها على أبويك من قبل ، أى : من قبل هذه الرؤيا أو من قبل هذا الوقت . وقوله : إبراهيم وإسحاق ، بيان لأبويه .

أى : يتم نعمته عليك إنهما كما أننا كنا تمام نعمته على أبويك من قبل ، وهما إبراهيم وإسحاق بأن وهبهما - سبحانه - النبوة والرسالة .

وعبر عنهما بأنهما أبوان ليوسف ، مع أن إبراهيم جد أبيه ، وإسحاق جده ، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء - عليهم السلام - ، والمبالغة في إدخال السرور على قلبه ، ولأن هذا الاستعمال مألوف في لغة العرب ، فقد كان أهل مكة يقولون للنبي - صلى الله عليه وسلم - يا ابن عبد المطلب ، وأثر عنه صلى الله عليه وسلم - أنه قال : أنا النبي لا كذب - أنا ابن عبد المطلب وجملة : إن ربك عليم حكيم مستأنفة لتأكيد ما سبقها من كلام .

نى : لمن ربك عليم بمن يصطفيه لخل رسالته . ومن هو أهل لنعمة
وكرامته ، حكيم فى صنعه ونصر فانه .

وبذلك نرى الآيات السكرية قد نوهت بشأن القرآن الكريم ، وساقط
بأسلوب حكيم ما قاله يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - بعد أن قص
ما رآه فى المنام .

تم حكى - - بحانه - بعد ذلك حالة لإخوة يوسف وهم يتأملون عليه ،
وحالتهم وهم يحادلون أباهم فى شأنه ، وحالتهم وهم ينفذون مؤامرتهم المفكرة
وحالتهم بعد أن نفذوها وعادوا إلى أبيهم ليلا بقا كون فقال تعالى - :

« اقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين (٧) إذ قالوا
ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لى ضلال
مبين (٨) افتلموا يوسف وأطرحوه أرضا يحل لكم وجه أبيكم ،
وتكوثوا من بعده فوما صالحين (٩) قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف
وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين (١٠)
قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصبون (١١) أرسله
منا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون (١٢) قال إني لبحرئني أن
تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه خافلون (١٣) قالوا
لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون (١٤) فلما ذهبوا به
وأجمعوا أن يحملوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم
هذا وهم لا يشعرون (١٥) » .

وقوله - سبحانه - : « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » ، شروع في حكاية قصة يوسف مع أخوته ، بعد أن بين - سبحانه - صفة القرآن الكريم ، وبعد أن أخبر عما رآه يوسف في منامه ، وما قاله أبوه له . . .

وإخوة يوسف هم : رآبين . وشمعون ، ولوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وأشير ، وبنيامين .

والآيات : جمع آية والمراد بها هنا للعبر والعظات والدلائل الدالة على قدرة الله - تعالى - ووجوب إخلاص العبادة له .

والمعنى : لقد كان في قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات عظيمة ، ودلائل تدل على قدرة الله القاهرة ، وحكمته الباهرة ، وعلى ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر ، وعلى ما للحسد والبقى من شروء وخذلان . . .

وقوله : « للسائلين » ، أى : لمن يتوقع منهم السؤال ، بقصد الإقتناع بما ساقه القرآن الكريم من مواعظ وأحكام .

أى : لقد كان فيما حدث بين يوسف وإخوته ، آيات عظيمة ، لكل من سأل عن قصتهم ، وفتح قلبه للإقتناع بما فيها من حكم وأحكام ، تشهد بصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه .

وهذا الافتتاح لتلك القصة ، كفيل بتحريك الانتباه لما سيلقى بعد ذلك منها ، من تفصيل لأحداثها ، وبيان لما جرى فيها .

وقوله - سبحانه - : « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة . . . »

بيان لما قاله إخوة يوسف فيما بينهم ، قبل أن ينفذوا جرمهم .
و « إذ » ظرف متعلق بالفعل « كان » ، في قوله - سبحانه - قبل ذلك :
لقد كان في يوسف وإخوته . .

واللام في قوله « ليوسف » ، لتأكيد أن زيادة محبة أبيهم ليوسف وأخيه أمر ثابت ، لا يقبل التردد أو التشكك .

والمراد بأخيه : أخوه من أبيه وأمه وهو ، بنيامين ، وكان أصغر من يوسف - عليه السلام - أما بقيتهم فكانوا إخوة له من أبيه فقط .

ولم يذكره باسمه ، للاشعار بأن محبة يعقوب له ، من أسبابها كونه شقيقا ليوسف ، ولذا كان حسدهم ليوسف أشد .

وجملة : ونحن عصبة ، حالية . والعصبة كلمة تطلق على ما بين العشرة إلى الأربعين من الرجال ، وهي مأخوذة من العصب بمعنى الشد ، لأن كلا من أفرادها يشد الآخر ويقويه ويعضده ، أولئك الأمور تعصب بهم . أى : تشدد وتقوى

أى : قال إخوة يوسف وهم يتشاورون في المكر به : ليوسف وأخوه بنيامين أحب إلى قلب أبينا منا ، مع أننا نحن جماعة من الرجال الأقوياء الذين عندهم القدرة على خدمته ومنفعته والدفاع عنه دون يوسف وأخويه .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : « إن أبانا لفي ضلال مبين » ، تذييل قصدوا به درء الخطأ عن أنفسهم فيما سيفعلونه بيوسف ولقائه على أيهم الذي فرق بينهم - في زعمهم - في المعاملة .

والمراد بالضلال : هنا عدم وضع الأمور المتعاقبة بالإنشاء في موضعها الصحيح ، وليس المراد به الضلال في العقيدة والدين .

أى : إن أبانا لفي خطأ ظاهر ، حيث فضل في المحبة صبيين صغيرين على مجموعة من الرجال الأشداء النافعين له القادرين على خدمته .

قال القرطبي : لم يريدوا بقولهم : « إن أبانا لفي ضلال مبين » ، الضلال في الدين ، إذ لو أرادوه لكانوا كفارا ؛ بل أرادوا : « إن أبانا لفي ذهاب عن وجه التدبير في إشارة اثنين على عشرة ، مع استوائهم في الإقتساب إليه » (١)

وهذا الحكم منهم على أيهم ليس فى محله ، لأن يعقوب - عليه السلام - كان عنده من أسباب التفضيل ليوسف عليهم ما ليس عندهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : يروى أن يعقوب - عليه السلام - كان يوسف أحب إليه لما يرى فيه من المناقب الحميدة ، فلدارأى الرؤيا تضاعفت له المحبة . وقال بعضهم : إن زيادة حبه ليوسف رآخيه ، صغرهما ، وموت أمهما ، وقد قيل لإحدى الأمهات : أى بنيك أحب إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يشفى .

ولألوم على الوالد فى تفضيله بعض ولده على بعض فى المحبة لمثل ذلك وقد صرح غير واحد أن المحبة ليست بما يدخل تحت وسع البشر ... (٢)

ثم أخير - سبحانه - عما اقترحوه للقضاء على يوسف فقال - تعالى - : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين ، .

ولفظ « اطرحوه » مأخوذ من طرح ، ومعناه رمى الشئ - وإلقاؤه بعيداً . ولفظ « أرضاً » منصوب على نزع الخافض ، والتنوين فيه للإبهام - أى : أرضاً مجهولة .

والمعنى : لقد بالغ أبونا فى تفضيل يوسف وأخيه عليهما ، مع أننا أولئ بنلك منهما ، وما دام هو مصرأ على ذلك ، فالحل أن تقتلوا يوسف ، أو أنه تلقوا به فى أرض بعيدة مجهولة حتى يموت فيها غريباً ...

قال الآلوسى : وحاصل المعنى : اقتلوه أو غربوه ، فإن التغريب كالقتل فى حصول المقصود ، وأمرى لقيد ذكروا أمرين مرين ، فإن الغربة كربة أبة كربة ، والله - تعالى - دور القاتل :

حسنوا القول وقالوا غربة
لأنما الغربة للأحرار ذبح
وجملة « يخل لكم وجه أبيكم » جواب الأمر .

والخلو : معناه الفراغ . يقال خلا المكان يخلو خلوا وخلًا ، إذا لم يكن به أحد .

والمعنى اقتتلوا يوسف أو اقدفوا به في أرض بعيدة بمحولة حتى يموت ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، خلصت لكم محبة أبيكم دون أن يشارككم فيها أحد ، فيقبل عليكم بكلية ، ويكن كل توجهه إليكم وحدهم ، بعد أن كان كل توجهه إلى يوسف .

قال صاحب الكشف : قوله د يخل لكم وجه أبيكم ، أى : يقبل عليكم لإقباله واحدة ، لا يلتفت عنكم إلى غيركم . والمراد سلامة محبة لهم من يشاركهم فيها ، وينازعهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى لإقباله عليهم ، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل عليه بوجهه (١)

وقوله ، وتكرونا من بعده قوما صالحين ، معطوف على جواب الأمر . أى : وتكرونا من بعد الفراغ من أمر يوسف بسبب قتله أو طرحه في أرض بعيدة ، قوما صالحين في دينكم ، بأن تتوبوا إلى الله بعد ذلك فيقبل الله توبتكم ، والحين في دنياكم بعد أن خلعت من المنغصات التي كان يثبثها وجود يوسف بينكم .

وهكذا النفوس عندما تسيطر عليها الأحقاد ، وتقوى فيها رذيلة الحسد ، تفقد قدرها الصحيح للأمور ، وتحاول التخلص من براجمها بالقضاء عليه ، وتصور الصغائر في صورة الكبائر ، والكبائر في صورة الصغائر . .

فإخرة يوسف هنا ، يرون أن محبة أبيهم لأخيه جرم عظيم ، يستحق إزهاق روح الأخ ، وفي الوقت نفسه يرون أن هذا الإزهاق للروح البريئة شيء هين ، في الإمكان أن يعودوا بعده قوما صالحين أمام خالقهم ، وأمام أبيهم ، وأمام أنفسهم

وقوله - سبحانه - : قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ، وألقوه في غيابة
الجب يلتقطه بهض السيارة إن كنتم فاعلين ، بيان للرأى الذى اقترحه أحدهم
واستقر عليه أمرهم .

قال القرطبي : قوله وألقوه في غيابة الجب ، قرأ أهل مكه وأهل
البصرة وأهل الكوفة ، في غيابة الجب ، - بالإفراد - ، وقرأ أهل المدينة
و في غيابات الجب ، - بالجمع - ...

وكل شيء غيب عنك شيئا فهو غيابة ، ومنه قيل للفقير غيابة . قال الشاعر
فإن أنا يوما غيبته غيابتى فسيرا بسيرى في العشرة والآدا

والجب : الركبة - أى الحفرة - التى لم تطا - أى لم تبني بالحجارة - فإذا
ظويت فهي بئر . وسميت جباً لأنها قطعت في الأرض قطعاً . وجمع الجب جيب
وجباب وأجباب ...

و جمع بين الغيابة والجب ؛ لأنه أراد ألقوه في موضع مظلم من الجب
لا يلحقه نظر الناظرين ... ، (١) .

والسيارة : جمع سيار ، والمراد بهم جماعة المسافرين الذين يبالغون
السير ليصلوا إلى مقصودهم .

والمعنى : قال قائل من إخوة يوسف أفرأه ما هم مقدمون عليه بشأن أخيه
الصغير : لا تقتلوا يوسف ، لأن قتله جرم عظيم ، وبدلاً من ذلك ، ألقوه
قعر الجب حيث يغيب خبره ، إلى أن يلتقطه من الجيب بعض المسافرين
فيذهب به إلى ناحية بعيدة عنكم ، وبذلك تستريحون منه ويخل لكم
أبيكم .

ولم يذكر القرآن اسم هذا القائل أو وصفه ، لأنه لا يتعلق بذكر
غرض وقد رجح بعض المفسرين أن المراد بهذا القائل : يهوذا ،

والفائدة في وصفه بأنه منهم ، الإخبار بأنهم لم يجمعوا على قتله أو طرحه في أرض بعيدة حتى يدركه الموت .

وأتى باسم يوسف دون ضميره ، لاستدرا عطفهم عليه ، وشفقتهم به ، واستعظام أمر قتله .

وجواب الشرط في قوله إن كنتم فاعلين ، مخوف ، لدلالة وألقوه عليه والمعنى : إن كنتم فاعلين ما هو خير وصواب ، فألقوه في غيابة الجب ، ولا تقتلوه ولا تنطرحوه أرضا .

وفي هذه الجملة من هذا القائل ، محاولة منه لتثبيطهم عما اقترحوه من القتل أو التعذيب بأسلوب بليغ ، حيث فوض الأمر إليهم ، تعظيما لهم ، وحذرا من سوء ظنهم به ، فكان أمثلهم رأيا ، وأقربهم إلى التقوى .

قالوا : وفي هذا الرأي عبرة في الاقتصاد من الانتقام ، والإكتماء بما يحصل به الغرض دون إفراط ، لأن غرضهم إنما هو إبعاد يوسف عن أبيهم ، وهذا الإبعاد يتم عن طريق إلقاءه في غيابة الجب .

ثم حكى — سبحانه — محاولاتهم مع أبيهم ، ليأذن لهم بخروج يوسف معهم فقال : قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين استرضاءه لاستصحاب يوسف معهم : يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ، أى : شئ جمالك لا تأمنا على أخينا يوسف في خروجه معنا ، والحال أننا له لناصحون ، فهو أخونا ونحن لا نريد له إلا الخير الخالص ، والود الصادق .

وفي ندائهم له بلفظ ديا أبانا ، استمالة لقلب ، وتحريك لعطفه ، حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم .

والاستفهام في قوله د مالك لا تأمنا . . . ، للتعجب من عدم اتقانهم عليه

مع أنهم إخوته ، وهو يوحى بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك في اصطحابه معهم ولكنهما جميعا باءت بالفشل .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : أرسله معنا غدا يرفع ويلعب . . .

والرفع والرنع هو الإتساع في الملاذ والتنعم في العيش ، يقال : رنع الإنسان في النعمة إذا أكل ما يطيب له . ورتعت الدابة إذا أكلت حتى شبعت ، وقوله كمنع والمراد باللعب هنا الاستجمام ورفع السامة ، كالنسابق عن طريق العدو ، وما يشبه ذلك من ألوان الرياضة المباحة .

أى : أرسله معنا غدا ليتسع في أكل الفواكه ونحوها ، وليدفع السامة عن نفسه عن طريق القفز والجري والنسابق معنا .

« وإنا له لحافظون » كل الحفظ من أن يصيبه مكروه ، أو يمسه سوء . وقد أكدوا هذه الجملة والتي قبلها وهى قوله « وإنا له لناصحون » بألوان من المؤكدات ، لىكى يستطعموا الحصول على مقصودهم فى اصطحاب يوسف معهم .

وهو أسلوب يبدو فيه التحايل الشديد على أبيهم ، لإقناعه بما يريدون تنفيذة وتحقيقه من مأرب سيئة .

ثم أخبر — سبحانه — عما رد به عليهم أبوه فقال : قال لى لى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ، .

والحزن : الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب .

والخوف : فزع النفس من مكروه يتوقع حصوله .

والذئب : حيوان معروف بمسدوانه على الضعاف من الإنسان ومن الحيوان ، وأل فيه للجنس ، والمراد به أى فرد من أفراد الذئاب .

أى : قال يعقوب لأبنائه ردا على إلحاحهم فى طلب يوسف للذهاب معهم : يا أبنائى لى لى ليحزننى حزنا شديدا فراق يوسف لى ، وفضلا عن ذلك فإننى

أخشى إذا أخذتموه معكم في رحلتكم أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون ، بسبب اشتغالكم بشئون أنفسكم ، وقلة اهتمامكم برعايته وحفظه . قالوا ، وخص الذئب بالذكر من بين سائر الحيوانات ، ليشعرهم بأثر خوفه عليه مما هو أعظم من الذئب توحشا وافتراسا أشد وأولى . أو خصه بالذكر لأن الأرض التي عرفوا بالنزول فيها كانت كثيرة الذئاب . وقوله - سبحانه - : : قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ، رد مؤكدا من إخوة يوسف على تخوف أبيهم وتردده في إرساله معهم ، إذ اللام في قوله : : لئن ، موطنه للقسم . وجواب القسم قوله : : إنا إذا لخاسرون .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين إدخال الطمأنينة على قلبه ، وإزالة الحزن والخوف عن نفسه : يا أبانا والله لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا ، ونحن عصابة من الرجال الأقوياء الحريصين على سلامته ، إنا إذا في هذه الحالة لخاسرون خسارة عظيمة ، نستحق بسببها عدم الصلاح لأى شىء نافع .

وأخيرا استسلم الأب ، لإلحاح أبنائه الكبار ، ليتحقق قدر الله الذى قدره على يوسف ، ولتسير قصة حياته فى الطريق الذى شاء الله تعالى - له أن يسير فيه .

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : : فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . . أى : فلما أقتنعوا أباهم بإرسال يوسف معهم ، وذهبوا به فى القدر الذى حيث يريدون ، وأجمعوا أمرهم على أن يلقوا به فى قعر الجب ، ففعلوا به ما فعلوا من الأذى ، ونفذوا ما يريدون تنفيذه بدون رحمة أو شفقة .

قالفاء فى قوله : فلما ، للتفريع على كلام مقدر ، وجواب : لما ، محذوف ، دل عليه السياق وفعل : أجمع ، يتعدى إلى المفعول بنفسه ، ومعناه العزم والتصميم على الشىء ، تقول : أجمعت السير أى : عزمت عزما قويا عليه .

وقوله ، أن يجعلوه ، مفعول أجمعوا .

قال الآلوسی : والروایات فی كيفية إلقائه في الجب ، وما قاله لإخوته عند إلقائه وما قالوه له كثيرة ، وقد تضمنت ما يلين له الصخر ، لكن ليس إفيها ماله سند يعول عليه ،^(١) والضمير في قوله ، وأوحينا إليه ، يعود على يوسف - عليه السلام - .

أي : وأوحينا إليه عند إلقائه في الجب عن طريق الإلهام القلبي ، أو عن طريق جبريل - عليه السلام - أو عن طريق الرؤيا الصالحة ...

، لتنبئهم بأمرهم هذا ، أي : لتخبرهم في الوقت الذي يشاؤه الله - تعالى - في مستقبل الأيام ، بما فعلوه معك في صدرك من إلقاءك في الجب ، ومن إنجاء الله - تعالى - لك فالمراد بأمرهم هذا : إيدائهم له ، وإلقائهم إياه في قعر الجب ، ولم يصرح - سبحانه - به ، لشدة سناخته .

وجملة ، وهم لا يشعرون ، حالية ، أي : والحال أنهم لا يحسون ولا يشعرون في ذلك الوقت الذي تخبرهم فيه بأمرهم هذا ، بأنك أنت يوسف ، لا اعتقادهم أنك قد هلكت في وطول المدة التي حصل فيها الفراق بينك وبينهم ، ولتبين حالك وحالهم في ذلك الوقت ، فانت ستكون الأمين على خزائن الأرض ، وهم سيقدمون عليك فقراء يطلبون عونك ورفدك ...

وتد تحقق كل ذلك - كما سيأتي - عند تفسير قوله تعالى - : ولما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز سنأهلكنا وأهلكنا الضرع ... ،

وكان هذا الإيحاء - على الأرجح - قبل أن يبلغ سن الحلم ، وقبل أن يكون فيها .

وكان المقصود منه ، إدخال الطمأنينة على قلبه ، وتبشير به بما سيصير إليه أمره من عز وغنى وسلطان .

قالوا : وكان هذا الجب الذى ألقى فيه يوسف على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب - عليه السلام - بفلسطين .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم لأبيهم بعد أن فعلوا فعلتهم وعادوا إليه ليلا يسكون فقال : « وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، .

والعشاء : وقت غيوبة الشفق الباقي من بقايا نداء الشمس ، وبدء حلول الظلام والمراد بالبكاء هنا : البكاء المصطنع للتعبية والخداع لأبيهم ، حتى يقتنعوه - فى زعمهم - أنهم لم يقصروا فى حق أخبهم .

أى : وجاءوا أباهم بعد أن أقبل الليل بظلامه يتباكون ، متظاهرين بالحزن والأسى لما حدث ليوسف ، وفى الأمثال : « دموع الفاجر بيديه » .

« قالوا يا أبانا إنما ذهبنا نستبق ، أى : نقسابق عن طريق الرعى بالسهام ، أو على الخيل ، أو على الأقدام . يقال : فلان وفلان استبقا أى : تسابقا حتى ينظر أيهما يسبق الآخر .

« وتركتنا يوسف عند متاعنا ، أى : عند الأشياء التى فتمتع بها وننتفع فى رحلتنا ، كالثياب والأطعمة وما يشبه ذلك .

« فأكله الذئب ، فى تلك الفترة التى تركناه فيها عند متاعنا .

والمراد : قتله الذئب ، ثم أكله دون أن يبقى منه شيئا تدفنه .

« وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، أى : وما أنت بمصدق لنا فيما أخبرناك به من أن يوسف قد أكله الذئب ، حتى ولو كنا صادقين فى ذلك ، لسوء ظنك بنا ، وشدة محبتك له .

وهذه الجملة السكريمة قرحى بكذبهم على أبيهم ، وبمخادعتهم له ، ويكاد المريب أن يقول خذونى - كما يقولون - .

ولكنهم لم يكتفوا بهذا التباكى وبهذا القول ، بل أضافوا إلى ذلك تمويه آخر حكاه القرآن فى قوله « وجاءوا على قيصه بدم كذب » أى : بدم

ذى كذب ، فهو مصدر بتقدير مضافه ، أو وصف الدم بالمصدر مبالغة ، حتى
لكانه الكذب بعينه ، والمصدر هنا بمعنى المفعول ، كالخلق بمعنى المخلوق ،
أى : بدم مكذوب .

والمعنى : وبعد أن ألقوا يوسف فى الحب ، واحتفظوا بقميصه معهم ،
وضعوا على هذا القميص دما مصطنعا ليس من جسم يوسف ، وإنما من جسم
شىء آخر قد يكون ظبيا وقد يكون خلافة .

وقال - سبحانه - ، على قميصه ، للإشعار بأنه دم موضوع على ظاهر
القميص وضعا منكلفا مصطنعا ، ولو كان من أثر اقتباس الذنب لصاحبه ،
لظهر التمزق والتخريق فى القميص ، ولتغلغل الدم فى كل قطعة منه .

ولقد أدرك يعقوب - عليه السلام - من قسبات وجوههم ، ومن دلائل
حاطمهم ، ومن فداء قلبه المفجوع ، أن يوسف لم يأكله الذنب ، وأن هؤلاء
المتباكين هم الذين دبروا له مكيدة ما ، وأنهم قد اصطنعوا هذه الحيلة المكشوفة
مخادعة له ، ولذا جابههم بقوله : قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا

والقسويل : التسهيل والتزيين . يقال : سولت لفلان نفسه هذا الفعل
أى زينة وحسنه له ، وصورته له فى صورة الشئ الحسن مع أنه قبيح :

أى : قال يعقوب لأبنائه بأسى ولوعة بعد أن فعلوا ما فعلوا وقالوا
ما قالوا : قال لهم ليس الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذنب ، وإنما
الحق أن نفوسكم الحاقدة عليه هى التى زينت لكم أن تفعلوا معه فعلا سيئا قبيحا ،
ستكشف الأيام عنه بإذن ربى ومشيتته .

ونكر الأمر فى قوله : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، لاحتماله عدة أشياء
مما يمكن أن يؤذوا به يوسف ، كالقتل ، أو التغريب ، أو البيع فى الأسواق
لأنه لم يمكن يعلم على سبيل اليقين ما فعلوه به .

وفى هذا التفسير والإبهام - أيضا - ما فيه من التهويل والتشنيع لما

أقترفوه في حق أخيهيم وقوله ، فصبر جميل ، أن : فصبري صبر جميل وهو الذي لا شكوى فيه لأحد سوى الله - تعالى - ولا رجاء معه إلا منه - سبحانه - .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : والله المستعان على ما تصفون ، أي : والله - تعالى - هو الذي أستعين به على احتمال ما تصفون من أن ابني يوسف قد أكل الذئب .

أو المعنى : والله - تعالى - وحده هو المطلوب عونه على إظهار حقيقة ما تصفون ، وإثبات كونه كذبا ، وأن يوسف ما زال حيا ، وأنه - سبحانه - سيجمعني به في الوقت الذي يشاؤه .

قال الآلوسی : أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : أن إخوة يوسف - بعد أن ألقوا به في الحب - أخذوا ظبيا فذبحوه ، ليطخوا بدمه قيصه ، ولما جاءوا به إلى أبيهم جعل يقلبه ويقول : تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أكل من هذا الذئب !! أكل ابني ولم يمزق عليه قيصه (١)

وقال القرطبي : استدلل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب - عليه السلام - قد استدلل على كذب أبنائه بصحة القميص ، وهكذا يجب على الحاكم أن يلحظ الأمارات والعلامات (٢)

وقال الشيخ القاسمي مالمخصه : وفي الآية من الفوائد : أن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود وبمن يراعيه . . . وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، لم يصدق ، وأن من طلب مراده بمعصية الله - تعالى - فضحه الله عز وجل - ، وأن القدر كائن ، وأن الحذر لا ينجي منه (٣)

(١) تفسير الآلوسی ١٢ ص ١٧٩ .

(٢) تفسير القرطبي ٩ ص ١٥٠ .

(٣) تفسير القاسمي ٣٥٢٠ .

ولما هنا نجد الآيات الكريمة قد حكّت لنا بأسلوبها البليغ ، وتصويرها المؤثر ، ما تأمر به لإخوة يوسف عليه ، وما اقترحوه لتنفيذ مكرهم ، وما قاله لهم أوسطهم عقلا ورأيا ، وما تحايّلوا به على أبيهم لكي يصلوا إلى ما ربههم ، وما رد به عليهم أبوهم ، وما قالوه له بعد أن قفدوا جريمتهم إلى أخيه . بأن ألقوا به في الحب ...

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتقص علينا مرحة - له أخرى من مراحل حياة يوسف - عليه السلام - حيث حدثتنا عن انتقاله من الحب ، وعن بيعه بثمن بخس وعن وصية الذي اشتراه لأمرائه ، وعن مظاهر رعاية الله - تعالى - له فقال - سبحانه - :

« وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ، وَأَسْرُوهُ بِضَاعَتٌ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَمْدُودَةٍ ، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامِرَأَتِهِ ، أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) » .

فقله - سبحانه - : « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه شروع في الحديث عما جرى ليوسف من أحداث بعد أن ألقى به لإخوته في الحب .

والسيارة : جماعة المسافرين ، وكانوا - كما قيل - متجهين من بلاد الشام إلى مصر .

والوارد : هو الذى يرد الماء ليستقى للناس الذين معه . ويقع هذا اللفظ على الفرد والجماعة . فيقال لكل من يرد الماء وارد ، كما يقال للماء مورود . وقوله : فأدلى ، من الإدلاء بمعنى إرسال الدلو فى البئر لآخذ الماء . والدلو : إناء معروف يوضع فيه الماء .

وفى الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام ، والتقدير : وبعد أن ألقى إخوة يوسف به فى الجب وتركوه وانصرفوا لشأنهم جاءت إلى ذلك المكان قافلة من المسافرين ، فأرسلوا واردهم ليبحث لهم عن ماء ليستقوا ، فوجد جباً ، فأدلى دلوه فيه ، فتعلق به يوسف ؛ فلما خرج ورأ فرح به وقال : يا بشرى هذا غلام .

وأوقع النداء على البشرى ، للتعبير عن ابتهاجه وسروره ، حتى لكأنه شخص عاقل يستحق النداء . أى : يا بشرى أقبلى فهذا أوان إقبالك . وقيل المنادى محذوف والتقدير : يا رفائى فى السفر أبشروا فهذا غلام وقد خرج من الجب .

وقرأ أهل المدينة ومكة : يا بشرى هذا غلام . بإضافة البشرى إلى المتكلم .

والضمير المنصوب وهو الماء فى قوله : وأسروه بضاعة ، يعود إلى يوسف أما الضمير المرفوع فيعود إلى السيارة . وأمر من الإسرار الذى هو من الإعلان .

والبضاعة : عروض التجار ومتاعها . وهذا اللفظ مأخوذ من البضع بمعنى القطع ، وأصله جملة من اللحم تبضع أى : تقطع . وهو حال من الضم المنصوب فى : وأسروه .

والمعنى : وأخفى جماعة المسافرين خبر التقاط يوسف من الجب مخافة يطلبه أحد من السكان المجاورين للجب ، واعتبروه بضاعة سرية لهم ، وعزم على بيعه على أنه من العبيد الأرقاء .

وأهل يوسف عليه السلام - قد أخبرهم بقصته بعد إخراجه من الحب .
واسكنهم لم يلتفتوا إلى ما أخبرهم به طمعا في بيعه والانتفاع بشمنه .
ومن المفسرين من يرى أن الضمير المرفوع في قوله « وأسرره » يعود
على الوارد ورفاقه ؛ فيكون المعنى :

وأمر الوارد ومن معه أمر يوسف عن بقية أفراد القافلة . مخافة أن يشاركهم
في ثمنه إذا علموا خبره ، وزعموا أن أهل هذا المكان الذي به الحب دفعوه إليهم
ليبيعوه لهم في مصر على أنه بضاعة لهم .
ومنهم من يرى أن الضمير السابق يعود إلى إخوة يوسف .

قال الشوكاني ما ملخصه : وذلك أن يهوذا كان يأتي إلى يوسف كل يوم
بالطعام . فأتاه يوم خروجه من الحب فلم يجد ، فأخبر إخوته بذلك ، فأتوا
إلى السيارة وقالوا لهم : إن الغلام الذي معكم عبد لنا قد أبق ، فاشتروه منه .
فاشتروه منهم بثمن بخس ، وسكت يوسف مخافة أن يأخذه إخوته فيقتلوه ، (١)

وعلى هذا الرأي يكون معنى « وأسرره بضاعة » : أخفى إخوة يوسف
كوته أخطاهم ، واعتبروه عرضا من عروض التجارة القابلة للبيع والشراء .
ويكون المراد بقوله - تعالى - بعد ذلك « وشروه بثمن بخس ، الشراء
الحقيقي » ، بمعنى أن السيارة اشتروا يوسف من إخوته بثمن بخس .

والحق أن الرأي الأول هو الذي تطمئن إليه النفس ، لأنه هو الظاهر من
معنى الآية ، ولأنه بعيد عن التكلف الذي يرى واضحاً في القولين الثاني والثالث

وقوله « والله عليم بما يعملون » أي : لا يخفى عليه شيء من أسرارهم . ومن
علمهم السوء في حق يوسف . حيث أنهم استرقوه وباعوه بثمن بخس ، وهو
لكريم بن الكريم بن الكريم . كما جاء في الحديث الشريف .

وقوله - سبحانه - « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » بيان لما فعله السيارة ببوسف بعد أن أسروه بضاعة .

وقوله « شروه » هنا بمعنى باعوه .

والبخس : النقص ، يقال بخس فلان فلانا حقه ، إذا نقصه وعابه . وهو هنا بمعنى المبخوس .

و « دراهم » جمع درهم ، وهى بدل من « ثمن » .

و « معدودة » صفة لدراهم ، وهى كناية عن كونها قليلة ، لأن الشئ القليل يسهل عده ، بخلاف الشئ الكثير ، فإنه فى الغالب يوزن وزناً .

والمعنى : أن هؤلاء المسافرين بعد أن أخذوا يوسف لي جعلوه عرضاً من عروض تجارتهم ، باعوه فى الأسواق بثمن قليل تافه ، وهو عبارة عن دراهم معدودة . ذكر بعضهم أنها لا تزيد على عشرين درهم .

وقوله : « وكانوا فيه من الزاهدين » بيان لعدم حرصهم على بقائه معهم ، إذ أصل الزهد قلة الرغبة فى الشئ . - تقول زهدت فى هذا الشئ . - إذا كنت كارهاً له غير مقبل عليه .

أى : وكان هؤلاء الذين باعوه من الزاهدين فى بقائه معهم ، الراغبين فى التخلص منه بأقل ثمن قبل أن يظهر من يطالبهم به .

قال الآلوسى ما ملخصه : وزهدم فيه سببه أنهم التقطوه من الجب . والملتقط الذى يتهاون به لا يبالي أن يبيعه بأى ثمن خوفاً من أن يعرض له مستحق ينزعه منه (١) .

وقوله - سبحانه - « وقال الذى اشتراه من مصر لامراته أكرى منواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . . . » بيان ليعض مظاهر رعاية الله - تعالى - ليوسف - عليه السلام - .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢ ص ١٨٣ .

والذى اشتراه ، قالوا إنه كان رئيس الشرطة لملك مصر فى ذلك الوقت ،
ولقبه القرآن بالعزى كما سياتى فى قوله - تعالى - قالت امرأة العزى الآن
حصى الحق

و من مصر ، صفة لقوله « الذى اشتراه » .

وامراته المراد بها زوجته ، واسمها كما قيل زليخا أو راعيل .
ومشواه من المشوى وهو مكان الإقامة والاستقرار . يقال ثوى فلان
بمكان كذا ، إذا أطل الإقامة به . ومنه قوله - تعالى - وما كنت ثاوياً فى
أهل مدين ، أى مقبلاً معهم .

أى : وقال الرجل المصرى الذى اشترى يوسف لامراته ، اجعلى محل
إقامته كريماً ، وأنزليه منزلاً حسناً مرضياً .

وهذا كناية عن وصيته لها بأكرامه على أبلغ وجه ، لأن من أكرم المحل
بتنظيفه وتهينته تهينة حسنة فقد أكرم صاحبه .

قال صاحب الكشف : قوله : « أكرمى مشواة » ، أى : اجعلنى منزلاً
ومقامه عندنا كريماً : أى حسناً مرضياً بدليل قوله بعد ذلك « إنه ربى أحسن
مشواى » .

والمراد : تفقديه بالإحسان ، وتمديده بحسن الملمسة ، حتى تكون نفسه طيبة فى
صحبته ، ساكنة فى كنفنا . ويقال : للرجل كيف أبو مشواك وأم مشواك ؟
لمن ينزل به من رجل أو امرأة ، يراد : هل تطيب نفسك بثوانك عنده وهل
يراعى حق نزولك به ؟ واللام فى « لامراته » متعلق بقال (١)

وقوله : « عسى أن ينفعنا أو يتخذه ولداً » . . . ، بين لسبب أمره لها
بأكرام مشواه .

أى : عسى هذا الغلام أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا ، وفى مختلف مشورنا ،

أو تثبناه فيكون منا بمنزلة الولد ، فإني أرى فيه علامات الرشد والنجاة ،
وأمارات الأدب وحسن الخلق .

قالوا وهذه الجملة ، أو نتخذها ولدا ، توحى بأنهما لم يكن عندهما أولاد .
والسكاف في قوله - سبحانه - ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، في محل
نصب ، على أنه نعت لمصدر محذوف ، والإشارة إلى ما تقدم من إنجائه من
إخوته ، وانتشاله من الجب ؛ ومحبة العزيز له . ، ومكنا ، من التمكين بمعنى
التثبيت ، والمراد بالأرض : أرض مصر التي نزل فيها .

أي : ومثل ذلك التمكين البديع الدال على رعايته له ، مكنا ليوسف في
أرض مصر ، حتى صار أهلا للأمر والنهي فيها .

وقوله ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، علة لمعلل محذوف ، فكانه قيل :
وفعلنا ذلك التمكين له ، لنعلمه من تأويل الأحاديث ، بأن نهبه من صدق اليقين ،
واستغارة العقل ، ما يجعله يدرك معنى الكلام إدراكا سليما ، ويفسر الرؤى
تفسيراً صحيحاً صادقا .

وقوله ، واقفه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، تذييل
قصد به بيان قدرة الله - تعالى - ، ونفاذ مشيئته .

فأمر الله هنا : هو ما قدره وأراد .

أي : واقفه - تعالى - متمم ما قدره وأراد ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا
يتنازعه منازع ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم . فيما يأتي
ويندرون من أقوال وأفعال .

والتعبير بقوله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، احتراز لإنصاف
ومدح القلة من الناس الذين يعطيهم الله - تعالى - من فضله ما يحلمهم لا يندرجون
في الأكثرية التي لا تعلم ، بل هو - سبحانه - يعطيهم من فضله ما يحلمهم يعلمون
مالا يعلمه غيرهم .

ثم بين - سبحانه - مظهر آخر من مظاهر إلهامه على يوسف فقال : ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين .

والأشد : قوة الإنسان ، وبلوغه النهاية في ذلك ، مأخوذ من الشدة بمعنى القوة والارتفاع . يقال : شد النهار إذا ارتفع .

يرى بعضهم أنه مفرد جاء بصيغة الجمع . ويرى آخرون أنه جمع لا واحد له من لفظه وقيل هو جمع شدة كأنعم ونعمة .

والمعنى : وحين بلغ يوسف - عليه السلام - منتهى شدته وقوته ، وهو السن التي كان فيها - على ما قيل^١ - ما بين الثلاثين والأربعين .

« آتيناه ، أى : أعطيناه بفضلائنا وإحساننا .

« حكما ، أى حكمة : وهى الإصابة في القول والعمل وهى النبوة .

« وعلما ، أى فقها في الدين ، وفهما سائما لتفسير الرقى ، وإدراكا واسعا لشئون الدين والدنيا .

وقوله « وكذلك نجزي المحسنين ، أى : ومثل ذلك الجزاء الحسن والعطاء الكريم ، نعطي ونجازي المحسنين ، الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - . به ، فكل من أحسن في أقواله وأعماله أحسن الله - تعالى - جزاءه .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتحدثنا عن مرحلة من أدق المراحل وأخطرهما ، فى حياة يوسف - عليه السلام - وهى مرحلة التعرض للفتن والمؤامرات بعد أن بلغ أشده ، وآناه الله - تعالى - حكما وعلما ، وقد واجه يوسف - عليه السلام - هذه الفتن بقلب سليم ، وخلق قويم ، فنجاه الله - تعالى - منها .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى بأسلوبها البليغ ما فعلته معه امرأة العزيز من ترغيب وترهيب ، وإغراء وتهديد فتقه ل...

«ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون» (٢٣) ولقد حمت به وطمع بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخاصين (٢٤) واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ، إلا أن يسجن أو عذاب أليم (٢٥) قال هي رأودتني من نفسي ، وشهد شاهد من أهلها ، إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (٢٦) وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين (٢٧) فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم (٢٨) يوسف أعرض عن هذا ، واستغفر لي لذنبك إنك كنت من الخاطئين (٢٩) .

وقوله - سبحانه - «ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه . . . رجوع إلى شرح ماجرى ليوسف في منزل العزيز بعد أن أمر امرأته بإكرام مثواه ، وما كان من حال تلك المرأة مع يوسف ، وكيف أنها نظرت إليه بعين ، تخالف العين التي نظر بها إليه زوجها .

والمرادة - كما يقول صاحب الكشف - مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى : فعلت معه ما يفعله الخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج منه ، يحتمل أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهو عبارة عن التحايل لمواقفته لإياها (١) .

والتعبير عن حالها معه بالمرادة المقتضية لتكرار المحاولة ، للإشعار

بأنها كان منها الطلب المستمر ، المصحوب بالإغراء والترفق والنحائل على ما تشهيه منه بشق الوسائل والحيل . . . وكان منه - عليه السلام - الإباء والامتناع عما تريده خوفاً من الله - تعالى -

وقال - سبحانه - « التي في بيتها ، دون ذكر لاسمها ، سقراتها ، وابتعادا عن التشهير بها ، وهذا من الأدب السامي الذي التزمه القرآن في تعبيراته وأساليبه ، حتى يتأسي أتباعه بهذا اللون من الأدب في التعبير .
والمراد ببيتها : بيت سكنها ، والإخبار عن المراودة بأنها كانت في بيتها ، أدعى لإظهار كمال نزاهته - عليه السلام - فإن كونه في بيتها يغري بالاستجابة لها ، ومع ذلك فقد أعرض عنها . ولم يطاوعها في مرادها . .

وعدى فعل المراودة بعن ، لتضمنه معنى المخادعة .

قال بعض العلماء : و « عن » هنا للمجاوزة ، أي : راودته بمبادعة له من نفسه ، أي : بأن يجعل نفسه لها . والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن الكريم ، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة . قاله ابن عطية ، أي : فالنفس أريد بها عفاه وتمكينها منه لما تريد ، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه في نفسه » (١) .

وقوله « وغلقت الأبواب » ، أي : أبواب بيت سكنها الذي قببت فيه بابا فبابا ، قبل كانت الأبواب مبيعة .

والمراد أنها أغلقت جميع الأبواب الموصلة إلى المكان الذي راودته فيه لإغلاقاً شديداً محكماً ، كما يشعر بذلك التضعيف في « غلقت » زيادة في حمله على الاستجابة لها .

ثم أضافت إلى كل تلك المغريات أنها قالت له : هيت لك ، أي : هاأنذا سهيئة لك فأسرع في الإقبال على . . .

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١٢ ص ٢٥٠ للشيخ الفاضل بن عاشور .

وهذه الدعوة السافرة منها له ، تدل على أن تلك المرأة كانت قد بلغت النهاية في الكشف عن رغبتها ، وأنها قد خرجت عن المألوف من بنات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة . . .

و د هيت ، اسم فعل أمر بمعنى أقبل وأسرع ، فهي كلمة حضر وحث على الفعل ، واللام في د لك ، لزيادة بيان المقصود بالخطاب ، كما في قولهم : سقيا لك وشكرا لك . وهي متعلقة بمحذوف فكأنها تقول : لإرادتي كائنة لك .

قال الجمل ما ملخصه : ورد في هذه الكلمة قراءات د هيت ، كليت و د هيت ، كقبيل ، و د هيت ، كحيث و د هيت ، بكسر الهاء وضم التاء ، و د هيت ، بكسر الهاء وفتح التاء .

ثم قال : فالقراءات السبعية خمسة ، وهذه كلها لغات في هذه الكلمة ، وهي في كلها اسم فعل بمعنى هلم أي أقبل وتعال ^(١) .

وقوله — سبحانه — د قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفعل الظالمون ، بيان لما رد به يوسف عليها ، بعد أن تجاوزت في إثارتها كل حد .

و د معاذ ، مصدر أضيف إلى لفظ الجلالة ، وهو منصوب بفعل محذوف أي : قال يوسف في الرد عليها : أعوذ بالله معاذاً مما تطلبينه مني ، وأعتصم به اعتصاماً مما تحاولينه معي ، فإن ما تطلبينه وتلحين في طلبه يتنافى مع الدين والمروءة والشرف . . . ولا يفعله إلا من خبت منيته ، وساء طبعه ، وأظلم قلبه .
وقوله د إنه ربي أحسن مثواي ، تحليل لفوره مما دعتة إليه ، واستعاذ بالله منه .

والضمير في د إنه ، يصح أن يعود إلى الله - تعالى - فيكون لفظاً ربي بمعنى خالق . والتقدير .

قال يوسف في الرد عليها : معاذ الله أن أفعل الفحشاء والمنكر ، بعد أن أكرمني الله - تعالى - بما أكرمني به من النجاة من الحب ، ومن تهيئة الأسباب التي جعلتني أعيش معوزا مكرما ، وإذا كان - سبحانه - قد حباني كل هذه النعم فكيف ارتكب ما بغضبه ؟

وجوز بعضهم عودة الضمير في «لأنه» إلى زوجها ، فيكون لفظ ربي بمعنى سيدي ومالكي ، والتقدير : معاذ الله أن أقابل من اشترائني بما له ، وأحسن منزلي ، وأمرك يا كرامي ، بالخيانة له في عرضه .

وفي هذه الجملة الكريمة تذكير لها بالطف أسلوب بحقوق الله - تعالى - وبحقوق زوجها ، وتنبيه لها إلى وجوب الإقلاع عما تريده منه من مواعظها ، لأنه يؤدي إلى غضب الله وغضب زوجها عليها .

وجملة «لأنه لا يفلح الظالمون» ، تعليل آخر لصدها عما تريده منه .
والفلاح : الظفر وإدراك المأمول ؛

أي : إن كل من ارتكب ما نهى الله - تعالى - عنه ، تكون عاقبته الخيبة والخسران وعدم الفلاح في الدنيا والآخرة ، فكيف تريدني أن أكون كذلك ؟ هذا ، والمتأمل في هذه الآية الكريمة يرى أن القرآن الكريم قد قابل دواعي الفجوة الثلاث التي جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة في المرادة ، وتغليب الأبواب ، وقولها «هيت لك بدواعي العفاف الثلاث التي رد بها عليها يوسف ، والمتمثلة في قوله - كما حكى القرآن عنه - معاذ الله ، فإنه ربي أحسن مثواي ، لأنه لا يفلح الظالمون - .

وذلك ليمثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، كان سلاح يوسف - عليه السلام - في تلك المعركة العنيفة بين نداء العقل ونداء الشهوة ...

ولكن نداء العقل ونداء الشهوة الجارحة لم ينته عند هذا الحد ، بل نرى القرآن الكريم يحكي لنا بعد ذلك صداما آخر بينهما فيقول : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » .

وهذه الآية السكرية من الآيات التي خلط المفسرون فيها بين الأقوال الصحيحة والأقوال السقيمة .

وسنين أولا الرأي الذي مختاره في تفسيرها ، ثم تتبعه بعد ذلك بغيره فنقول : ألهم : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه ، تقول هممت على فعل هذا الشيء ، إذا أقبلت نفسك عليه دون أن تفعله .

وقال بعض العلماء : ألهم نوعان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا ، وهو مذموم مؤاخذ به صاحبه . وهم يمدنى خاطر وحديث نفس ، من غير تصميم وهو غير مؤاخذ به صاحبه ، لأن خطور المناهى في الصدور ، ونصورها في الأذهان ، لا مؤاخذة بها مالم توجد في الأعيان .

روى الشيخان وأهل السنن عن أبي هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إن الله يجازر لأمي عما حدثت به أنفسها ، مالم تتكلم به ، أو تعمل به (١) .

وقد أجمع العلماء على أن هم امرأة العزيز بيوسف كان هما بمهصية ، وكان مقرونا بالعزم والجزم والقصد ، بدليل المراودة ، وتغليب الأبواب ، وقولها : هيت لك .

كما أجمعوا على أن يوسف - عليه السلام - لم يأت بفاحشة ، وأن همه كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية ، من غير جزم وعزم وهذا اللون من ألهم لا يدخل تحت التكليف ، ولا يخل بمقام النبوة ، كالصائم يرى الماء البارد في اليوم الشديد الحرارة ، فتميل نفسه إليه ، ولكن دينه يمنعه من الشرب منه ، فلا يؤاخذ بهذا الميل .

والمراد ببرهان ربه هو : ماغرسه الله - تعالى - في قلبه من العلم المصحوب بالعمل ، بأن هذا الفعل الذي دعت إليه امرأة العزيز قبيح ، ولا يليق به .

أو هو - كما يقول ابن جرير - وقيته من آيات الله ما زجره عما كان هم به .

والمعنى : « ولقد همت به ، أى : ولقد قصدت امرأة العزيز الواقعة
رسف - عليه السلام - قصدا جازما ، بعد أن أغرته بشتى الوسائل فلم
ستجب لها ... »

« وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، أى : ومال إلى مطاوعها بمقتضى
طبيعته البشرية ، وبمقتضى توفر كل الدواعى لهذا الميل »

ولكن مشاهدته للأدلة على شناعة المعصية ، وخوفه لمقام ربه ، وعون
الله - تعالى - له على مقاومة شهوته كل ذلك حال بينه وبين تنفيذ هذا
لميل ، وصرفه عنه صرفا كلياً ، وجعله يقرها ربا طالبا النجاة بما تريده منه
تلك المرأة .

هذا هو الرأى الذى نختاره فى تفسير هذه الآية الكريمة ، وقد استخلصناه
من أقوال المفسرين القدامى والمحدثين .

فإن المفسرين القدامى الذين ذكروا هذا الرأى صاحب الكشاف ، فقد
قال ما ملخصه :

وقوله - تعالى - « ولقد همت به ، معناه : ولقد همت بمخالطته ، وهم
بها ، أى : وهم بمخالطتها » لولا أن رأى برهان ربه ، جوابه محذوف تقديره :
لولا أن رأى برهان ربه لمخالطها ، فحذف لأن قوله وهم بها يدل عليه . كقولك :
هممت بقتله لولا أنى خفت الله معناه : لولا أنى خفت الله لقتلته . فإن قلت :
كيف جاز على نبى الله أن يكون منه هم بالمعصية ؟

قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت لإلها عن شهوة
الشباب ، ميلا يشبه الهم به ، وكما تقتضيه تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول
والعزائم ، وهو يكسر ما به ، ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على
المسكفين بوجوب اجتناب المخارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى
هما لشدة ، لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام
«صبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدة ، ولو كان همه كهمها

عن عزيمة لما مدحه الله بأه من عباده المخلصين^(١) . ومن المفسرين المحدثين الذين ذكروا هذا الرأي الإمام الألوسي ، فقد قال ما ملخصه :

« قوله : ولقد همت به ، أى : بمخالطته . . والمعنى : أنها قصدت المخالطة وعزمت عليها عزما جازما ، لا يلويها عنها صارف بعدما بانثرت مبادئها . . .
والتأكيد - باللام وقد - لدفع ما يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه .

« وهم بها ، أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية . . . ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف ، وليس المراد أنه قصدها قصدا اختياريا ، لأن ذلك أمر مذموم تنادى الآيات بعدم اتصافه به ، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في حجة مهما في الذكر على سبيل المشاكلة لا لشبهه به . . . » لولا أن رأى برهان ربه ، أى محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا ، وسوء سبيله .
والمراد رؤيته له : كمال إبقائه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين . . . »^(٢) .

ومن المفسرين من يرى أن المازاد بهمها به : ألهم بضربه نتيجة عصيانه لأمرها .
وأن المراد بهمها بها : الدفاع عن نفسه برد الاعتداء ، ولكنه أثر الهرب .

وقد قرر هذا الرأي ودافع عنه وأنكر سواء صاحب المنار . فقد قال ما ملخصه :

« ولقد همت به ، أى : وتا الله ، لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه لأمرها ، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها . وقد أذات نفسها له بدعوته الصريحة إلى تقسها ، بعد الاحتمال عليه بما رآه من نفسه » نخرجت بذلك عن طبع أنوثتها فى التمتع

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣١١ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٩١ .

عما جعلها تحاول البطش به بعد أن أذل كرامتها ، وهو انتقام مهود من مثلها ، وعن دونها في كل زمان ومكان

وكاد يرد صياها ويدفعه بمنزله ، وهو قوله - تعالى - وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه ، ما هو مصداق قوله - تعالى - والله غالب على أمره ، وهو إما النبوة . . . وإما معجزتها . . . وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا ، وهي مراقبته لله - تعالى - ورؤيته ربه متجليا له ، ناظرا إليه . (١)

وما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم منها بالبطش بيوسف ، وتفسير الهم منه برد الاعتماد الذي وقع عليه منها

أقول ما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم بذلك ، لا أرى دليلا عليه من الآية ، لا عن طريق الإشارة ، ولا عن طريق العبارة . . .

ولعل صاحب المنار - رحمه الله - أراد بهذا التفسير أن يبعد يوسف عليه السلام - عن أن يكون قد هم بها هم ميل بمقتضى الطبيعة البشرية ، ونحن نرى مقتضيا لهذا الإبعاد ، لأن خطور المناهي في الأذهان ، لا مؤاخذه عليها ، اداامت لم يصاحبها عزم أو قصد - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل - .

هذا وهناك أقوال أخرى لبعض المفسرين في معنى الآية الكريمة ، رأينا أن نضرب عنها صفحا ، لأنه لا دليل عليها لا من العقل ولا من النقل ولا من لغة وإنما من الأوهام الإسرائيلية التي تتنافى كل التنافي مع أخلاق باد الله المخلصين ، الذين على رأسهم يوسف - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - كذلك لنصرف عند السوء والفحشا . إنه من عبادنا خلصين ، بيان لمظهر من من مظاهر رحمة الله - تعالى - به ، ورعايته له . والكاف : نعت لمصدر محذوف والإشارة بذلك إلى الإراءة المدلول

عليها بقوله « لولا أن وأى برهان ربه » ، أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك .

والصرف : نقل الشيء من مكان إلى مكان ، والمراد به هنا : الحفظ من الوقوع فيما نهى الله عنه . أى : أريناه مثل هذه الإرامة ، أو ثبتناه نقبينا مثل هذا التثبيت لنمحصه ونحفظه ونصونه عن الوقوع فى السوء - أى فى المنكر والفجور والمكروه - والفحشاء - أى كل ما خش وقبح من الأفعال كالزنا ونحوه .

« إنه من عبادنا المخلصين » - بفتح اللام - أى : إنه من عبادنا الذين أخلصناهم اطاعتنا ، وعصمتهم من كل ما يفضينا .

وقرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو « المخلصون » - بكسر اللام - أى : إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم لنا .

والجمله السكريمة على القراءتين تعليل لحكمة صرفه - عليه السلام - عن السوء والفحشاء .

وقوله ... سبحانه - « واستبقا الباب ... » متصل بقوله - سبحانه - قبل ذلك . « ولقد همت به ... » وقوله « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ... » اعتراض جى به بين المتعاطفين تقريرا لنزاهته .

وقوله « واستبقا ... » من الاستباق ، وهو افتعال من السبق ، بمعنى أن كل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب .

ووجه تسابقهما : أن يوسف - عليه السلام - أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبا من الفاحشة التى طلبتها منه . وهى أسرعت خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه .

وأفرد - سبحانه - الباب هنا ، وجمعه فيما تقدم . لأن المراد به هنا الباب الخارجى ، الذى يخلص منه يوسف إلى خارج الدار ، وهو منصوب هنا على نزع الخافض أى . واستبقا إلى الباب .

وحملة (وقدت قيمته من دبر) حالية ، والفقد : القطع والشق ، وأكثر استعماله في الشق والقطع الذي يكون طويلا ، ودو المراد هنا ، لأن الغالب أنها جنة به من الخلف وهو يجرى أمامها فانخرق القميص إلى أسفله .

وقوله : (وألفيا سيدها لدى الباب) أى : وصادفا ووجدا زوجها عند الباب الذى تسابقا للوصول إليه .

قالوا : والتعبير عن الزوج بالسيد ، كان عادة من عادات القوم في ذلك الوقت ، فحبر عنه القرآن بذلك حكاية لدقائق ما كان متبعيا في التاريخ القديم .

وقال - سبحانه - وألفيا سيدها ، لأن ملك العزيز ليوسف - عليه السلام - لم يكن ملكا صحيحا ، فيوسف لبس رقيقا يباع ويشترى ، وإنما هو الكريم بن الكريم بن الكريم ، وبيع السبارة له ، وإنما كان على سبيل التخلص منه بعد أن التقطوه من الجب .

وقوله - سبحانه - (قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن) وعذاب أليم) حكاية لما قالت لزوجها عندما فوجئت به عند الباب وهى سرع وراء يوسف .

أى قالت تلك المرأة لزوجها عندها فوجئت به لدى الباب : ليس من جزاء لمن أراد بأهلك - تعنى نفسها - سوءا ، أى ما يسوءك ويقولك ، إلا أن يسجن ، عقوبة له ، أو أن يعذب عذابا أليما عن طريق الضرب أو الجلد ، متجاوزة الحدود ، واعتماده على أهلك .

وهذه الجملة الكريمة التى حكاها القرآن الكريم عنها ، تدل على أن تلك المرأة كانت فى نهاية المسكر والدهاء والتحكم فى إرادة زوجها . . .

ورحم الله الآلوسى فقد علق على قولها هذا الذى حكاها القرآن عنها بقوله
الملخصة :

(ولقد آتت - تلك المرأة - فى هذه الحالة التى يدهش فيها الفطن اللودعى

- حيث شاهدها زوجها على تلك الحالة المريبة - بحيلة جمعت فيها غرضها ، وهما نبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر حالها ، واستنزاع يوسف عن رأيه في استعصائه عليها ، وعدم طاعته لها ، بإلقاء الرعب في قلبه ...

ولم تصرح بالاسم ، بل أتت بلفظ عام «من أراد بأهلك سوءا...» ، تويلا للأمر ، ومبالغة في التخويف ، كأن ذلك قانون مطرد في حق كل من أراد بأهله سوءا .

وذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز ، إعظاما للخطب ...

ثم إن حبها الشديد ليوسف - عليه السلام - حملها على أن تبدأ بذكر السجن ، وتؤخر ذكر العذاب لأن الحب لا يسمي في إيلام المحبوب ، لا سيما أن قولها «إلا أن يسجن...» ، قد يكون المراد منه السجن لمدة يوم أو يومين ،... (١) .

والحق أن هذه الجملة التي حكها القرآن عنها ، قد دل على اكتمال قدرتها على المسكر والدهاء - كما سبق أن أشرنا - ومن مظاهر ذلك ، محاولتها لإيهام زوجها بأن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوؤها ويسوؤه ، ولكن بدون تصريح بهذا العدوان - شأن العاشق مع معشوقه - حتى لا يسمي زوجها في التخلص منه ببيعه - مثلا - .

وفي الوقت نفسه لإيهام يوسف عن طريق مباشر ، بأن أمره ببدها لا بيد زوجها ، وأنها هي الأمرة الناهية ، فعليه أن يخضع لما تريده منه ، وإلا فالسجن أو العذاب الآليم هو مصيره المحتوم .

وهنا نجد يوسف - عليه السلام - لا يجد مفر من الرد على هذا الاتهام الباطل ، فيقول : كما حكى القرآن عنه - : « قال هي راودتني عن نفسي... » .

أى : قال يوسف دافعا عن نفسه : لى ما أردت بها سوءا كما تزعم ، وإنما هى التى بالفت فى ترغيبى وإغرائى بارتكاب مالا يابق معها ..
ثم قال - تعالى - : « وشهد شاهد من أهلها ، إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » .

وهذا الشاهد ذهب بعضهم إلى أنه كان ابن خال لها ، وقيل ابن عم لها ..
قال صاحب المنار : ولكن الرواية عن ابن عباس وسعيد بن جبیر والضحاك ، أنه كان صبيا فى المهد ، ويؤيدها مارواه أحمد وابن جرير والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : - تسكلم فى المهد أربعة وهم : صفار ابن ماشطة ابنة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم ، .

وابن جرير عن أبى هريرة قال : « عيسى ابن مريم ، وصاحب يوسف وصاحب جريج تسكلموا فى المهد ، وهذا موقوف ، والمرفوع ضعيف ، وقد اختاره ابن جرير ، وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا تضعيف » (١) .
وعلى أية حال فالذى يهمننا أن الله - تعالى - قد سخر فى تلك اللحظة الحرجة ، من يدلى بشهادته لتثبت براءة يوسف أمام العزيز .

وألقى الله - تعالى - هذه الشهادة على لسان من هو من أهلها ، لتسكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه .
وقد قال هذا الشاهد فى شهادته - كما حكى القرآن عنه - « إن كان قميصه قد من قبل ، أى : من أمام ، فصدقت ، فى أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنها دافعت من الإمام وهو يريد الاعتداء عليها .

« وهو من الكاذبين ، فى قوله هى راودتنى عن نفسى » .

« وإن كان قميصة قد من دبر ، أى من خلف » فكذبت ، فى دعواها على أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنه حاول الحرب منها ، فتعقبته حتى الباب ، وأمسكت به من الخلف » وهو من الصادقين ، فى دعواه أنها راودته عن نفسه .

وسمى القرآن الكريم ذلك الحكم بينهما شهادة ، لأن قوله هذا يساعد على الوصول إلى الحق فى قضية التبس فيها الأمر على التعزير .

وقدم الشاهد فى شهادته الغرض الأول وهو - « إن كان قميصة قد نبل - لأنه إن صح يقتضى صدقها ، وقد يكون هو حريضا على ذلك بمقتضى قرابته لها ، إلا أن الله - تعالى - أظهر ما هو الحق ، تكريما ليوسف - عليه السلام - أو يكون قد قدم ذلك باعتبارها ميدة ، ويوسف قى ، فن باب المياقة أن يذكر الغرض الأول رحمة بها .

وزيادة جملة « وهو من الكاذبين ، بعد « فصدقت ، وزيادة جملة « وهو من الصادقين » بعد « فكذبت » تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو الشأن فى إصدار الأحكام .

وقوله - سبحانه - : (فلما رأى قميصة قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ...) بيان لما قاله زوجها بعد أن انكشفت له الحقيقة انكشافا تاما .

أى : فلما رأى العزيز قميص يوسف قد قطع من الخلف . وجه كلامه إلى زوجته معاتباً لإياها بقوله ، إن محاولتك إتهام يوسف بما هو برى منه ، هو نوع من (كيدكن) ومكركن وحيلكن (إن كيدكن عظيم) فى بابه ، لأن كثير من الرجال لا يفتنون إلى مراميه .

وهكذا واجه ذلك الرجل خيانة زوجته له بهذا الأسلوب الزاعم الهدى ،
(٥ - سورة يوسف)

بأن نسب كيدها ومكرها لا إليها وحدها بل الجنس كله (لأنه من كيدكن ٠٠)
ثم وجه كلامه إلى يوسف فقال له يوسف أعرض عن هذا أي: يا يوسف
أعرض عن هذا الأمر الذي دار بينك وبينها فاكتمه . ولا تتحدث به خوفا
من الفضيحة ، وحفاظا على كرامتي وكرامتها .

وقوله : واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ، خطاب منه لزوجته
التي ثبتت عليها الجريمة فبوتت ناعما .

أي : واستغفرى الله من ذنبك الذي وقع منك ، بإساءتك فعل السوء مع
يوسف ، ثم اتهامك له بما هو بريء منه .

وجملة : إنك كنت من الخاطئين ، تعليل لطلب الاستغفار . أي توبى إلى
الله بما حدث منك ، لأن ما حدث منك مع يوسف - ملك من جملة القوم المتعمدين
لارتكاب الذنوب وجعلها من جملة الخاطئين للتخفيف عليها في المؤاخذه .

وهكذا نجد هذا الرجل - صاحب المنصب الكبير - يعالج الجريمة التي
تثور لها الدماء في العروق ، وتستلزم حسما وحزما في الأحكام ، بهذا الأسلوب
الهادئ البارد ، شأن المترفين في كل زمان ومكان ، الذين تههم ظواهر الأمور
دون حقائقها ، وأشكالها دون جواهرها ، فهو يلوم امرأته لوما خفيفا يشبه
المدح ، ثم يطلب من يوسف كتمان الأمر ، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها
المتعمدة . . . ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ما هي عليه من بقاء يوسف معها في
بيتها ، وبد أن كان منها معه ما يستلزم عدم اجتماعهما هذا . ومن العبر والعظات
والأحكام التي نأخذها من هذه الآيات المبكرة :

١ - أن اختلاط الرجال بالنساء . كثيرا ما يؤدي إلى الوقوع في الفاحشة
وذلك لأن ميل الرجل إلى المرأة وميل المرأة إلى الرجل أمر طبيعي ، وما
بالذات لا يتغير .

وجود يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز تحت سقف واحد في

من كانت هي فيها مكتملة الأفوثة ، وكان هو فيها فتى شابا جميلا أدى إلى فتنها به ، وإلى أن تقول له في نهاية الأمر بعد إغراءات شتى له منها : « هيت لك » .

ولا شك أن من الأسباب الأساسية التي جعلتها تقول هذا القول العجيب وجودهما لفترة طويلة تحت سقف واحد .

لذا حرم الإسلام تحريرا قاطعا الخلوة بالأجنبية ، سدا لباب الوقوع في الفتن ، ومنعا من تهمة الوسائل للوقوع في الفاحشة .

ومن الأحاديث التي وردت في ذلك ما رواه الشيخان عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار ، أفرأيت الخو يا رسول الله؟ قال : الخو الموت^(١) . وانحو هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه .

وسئلت امرأة أنجرفت عن طريق العفاف ، لماذا كان منك ذلك فقالت : قرب الوساد ، وطول السواد^(٢) .

أى : حملنى على ذلك قربي ممن أحبه ، وكثرة محادثتى له ١١
٢ - أن هم الإنسان بالفعل ، ثم رجوعه عنه قبل الدخول في مرحلة التصميم والتنفيذ ، لا مؤاخذه فيه .

قال القرطبي ما ملخصه : الهم الذي هم به يوسف ، من نوع ما يخطر في

(١) من كتاب «رياض الصالحين» ص ٢٢١ باب تحريم الخلوة بالأجنبية .

(٢) الوساد معروف وهو ما يتوسد به الإنسان عند نومه . والسواد -

بكسر السين مصدر ساوده إذا أسر إليه بالحديث .

قلوا : وهذه الكلمة كانت لابنة الخصى ، اعتذرت بها عن نفسها بعد أن

فنت فقيل لها لماذا هذا السلوك وأنت سيدة قومك ؟ فقالت هذه الكلمة التي

ذهبت مثلا راجع تفسير المنار > ١٢ ص ٢٧٨ .

النفس ، ولا يثبت في الصدر ، وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق ،
إذ لا قدرة للمكلف على دفعه ..

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - « قالت الملائكة يا ربنا ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئته وهو
أبصر به - فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها
له حسنة ، إنما تركها من جرائي - أي من أجلي - .

وفي الصحيح : إن الله تجاوز لآمتي عما كانت يه أنفسها ما لم تعمل أو
تسكلم به ، (١) .

٣ - أن من الواجب على المؤمن إذا ما دعي إلى معصية أن يستعين بالله
من ذلك ، وأن يذكر الداعي له بضررها ، وبسوء عاقبة المتركب لها
كما قال يوسف - عليه السلام - « معاذ الله . إنه ربي أحسن مثوإي
إنه لا يفتح الظالمون ، .

٤ - أن يوسف - عليه السلام - قد خرج من هذه المجنة مشهودا له بالبراءة
وتقاء العرض ، من الله - تعالى - ، ومن خلقه الذين سخرهم لهذه الشهادة .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : وأعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة ،
يوسف - عليه السلام - وتلك المرأة وزوجها ، ورب العالمين والكل شهد
ببراءة يوسف عن المعصية ، أما يوسف - عليه السلام - فقد قال « هي راودتني
عن نفسي » وقال : « رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ،

وأما امرأة العزيز فقد قالت : « أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين .. »
وأما زوجها فقد قال « إنه من كيدك إن كيدك عظيم ،

وأما شهادة رب العالمين ببراءته فني قوله - تعالى - ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين .

فقد شهد الله - تعالى - على طهارته في هذه الآية أربع مرات ، أولها :
و لنصرف عنه السوء ، وثانيها ، والفحشاء ، وثالثها ، إنه من عبادنا ، ورابعها
المخلصين ، (١) .

٥ - أن موقف العزيز من امرأته كان موقفاً ضعيفاً متراجهاً ... وهذا
للموقف هو الذي جعل تلك المرأة المتحكمة في زمام زوجها ، تقول بعد ذلك
بكل تهيج وتكشف واستهتار : ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم
يفعل ما أمره ليسجنن ، وإيكونا من الصاغرين .

٦ - أن القرآن الكريم قد صور تلك المحنة في حياة يوسف وامرأة
العزيز ، تصويراً واقعياً صادقاً ، ولكن بأسلوب حكيم ، بعيد عما يחדش الحياء
أو يجرح الشعور .

قال بعض العلماء : والذي خطر لي أن قوله - تعالى - ، ولقد همت به وهم
بها لولا أن رأى برهان ربه . : هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما
أبى يوسف في أول الأمن واستعصم ، وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس
البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة ،
ولكن السياق المرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتفارقة
المتغالبية ، لأنه المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق
أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة ، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك
فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته ، مع الإمام
بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً ... (٢)

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ١١٦ .

(٢) من تفسير د في ظلال القرآن ، للأستاذ سيد قطب > ١٢ ص ١٩٨١
طبعة دار الشروق .

ثم حكى السورة للكرامة بعد ذلك ما قالته بعض النساء : بعد أن شاع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وما فعلته معهن من أفعال تدل على شدة مكرها ودهائها ، وما قاله يوسف — عليه السلام — بعد أن سمع ما سمع من تهديدهن وإغرائهن ... قال - تعالى - :

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا مَمَّاتُ بِمَكْرِهِنَّ ، أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَّكًا ، وَأَتَيْتُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَنْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْنَجَنَّ وَلَيُكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) » .

قوله - سبحانه - « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ... » حكاية لما تناقلته الألسنة عن امرأة العزيز ، فقد جرت العادة بين النساء ، أن يتحدثن عن أمثال هذه الأمور في مجالسهن ، ولا يكتفينا ، خصوصاً إذا كانت صاحبة الحادثة من نساء الطبقة المرموقة ... كأمراة العزيز . والنسوة : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ومفرده من حيث المعنى : امرأة ،

والمراد بالمدينة : مدينة مصر التي كان يعيش فيها العزيز وزوجته ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لنسوة .

أى : وقال نسوة من نساء مدينة مصر، على سبيل النقد والتشهير والتعجب .
 إن امرأة العزيز ، صاحبة المسكاة العالية ، والمنزلة الرفيعة ، بلغ بها الحال في
 انقيادها لخواها ، وفي خروجها عن طريق العفة أنها تراود فتاها عن
 نفسه ، أى : تطلب منه موافقتها ، وتتخذ لبلوغ غرضها شتى الوسائل والحيل .

ولم يبين لنا القرآن الكريم ، عدد هؤلاء النسوة . ولا صفاتهن ، لأنه لا يتعلق
 بذلك غرض نافع ، ولأن الذى يهدف إليه القرآن الكريم هو بيان أن ما حدث
 بين يوسف وامرأة العزيز ، قد شاع أمره بين عدد من النساء ، في مدينة كبيرة
 كعصر وفي وصفها بأنها « امرأة العزيز » ، زيادة في التشهير بها ، فقد جرت العادة
 بين الناس ، بأن ما يتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث ، يكون أكثر
 انتشاراً ، بينهم ، وأشد في النقد والتجريح .

والتعبير بالمضارع في قوله - سبحانه - « تراود ، يشهر » بأنها كانت مستمرة
 على ذلك ، دون أن يمنعها منه افتضاح أمرها ، وقول زوجها لها ، واستفري
 لذنبك إنك كنت من الخاطئين ، .

والمراد بفتاها يوسف - عليه السلام - . ووصفته بذلك لأنه كان في
 خدمتها ، والمبالغة في وصفها بسوء السلوك ، حيث بلغ بها الحال في احتقار
 نفسها ، أن تكون مراودة لشخص هو خادم لها . . .

وجملة « قد شغفها حباً » ، بيان لحالها معه ، وهى في محل نصب حال من فاعل
 تراود أو من مفعوله والمقصود بها تكرير لومها ، وتأكيده انقيادها لشهوائها .
 وشغف مأخوذ من الشغاف - بكسر الشين - وهو غلاف القلب ، أو
 سويداوة أو حجابها . يقال شغف الهوى قلب فلان شغفاً أى بلغ شغافه .

والمراد أن حبها إياه قد شق شغاف قلبها ، وتمكن منه تمكناً لا يريد عليه
 و ، حباً ، تمييز محول عن الفاعل . والأصل : شغفها حبها إياه .

وجملة : إنا لنراها في ضلال مبين ، مقرر للضمون ما قبلها من لوم امرأة العزيز ، وتحقير سلوكها . والمراد بالاضلال : مخالفة طريق الصواب .

أى : إنا لنرى هذه المرأة بعين بصيرتنا ، ومصادق علمنا ، فى خطأ عظيم واضح بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء ؛ لأنها — وهى المرأة المرموقة وزوجة الرجل الكبير — تراود خادمها عن نفسه .

والتعبير : إنا لنراها . . . ، للإشعار بأن حكمهن عليها بالاضلال ليس عن جهل ، وإنما هو عن علم وروية ، مع التلويح بأنهن يتنزهن عن مثل هذا الضلال المبين الصادر عنها .

قال صاحب المنار : وهن ما قلن هذا إنكارا للنكر ، وكرها للردية ، ولا حبا فى المعروف ، ونصراً للفضيلة . وإنما قلته مكرًا وحيلة ، ليصل إليها قوطن فيحملها على دعوتهن . وإرامتهن بأعين أبصارهن ، ما يبطل ما يدعين رؤيته بأعين بصائرهن . فيعذرنا فيما عذله عليه . فهو مكر لارأى ،^(١)

وهنا تحكى السورة الكريمة كيف قابلت تلك المرأة الداهية الجريئة ، مكر بنات جنسها وطبقته بمكر أشد من مكرهن بها فقال — تعالى — :

« فلما سمعت بمكرهن ، أى : باغتيابهن لها . وسوء مقالتهن فيها ، ومسمى ذلك مكرًا لشبهه به فى الإخفاء والخداع .

أو قصدن بما قلته — كما سبق أن أشرنا — لإثارتها ، لئلى تظلمن على فتاها الذى راودته عن نفسه . ليعرفن السرفى هذه المرادة ، وعلى هذا يكون المكر على حقيقته . ومثل هذا المكر ليس غريباً على النساء فى مثل هذه الأحوال .

وقوله : أرسلت اليهن . الخ ، بيان لما فعلته معهن :

أى : أرسلت إلى النسوة اللاتي وصفنها بأنها في ضلال مدين ، ودعتهن إلى الحضور إليها في دارها لتناول الطعام .

- وأعتدت لهن متكأ ، أى : وهيات لهن في مجلس طعامها ، ما يتمكن عليه من الوسائد والتمارق وما يشبه ذلك .

فالمتكأ : اسم مفعول من الإنكاء ، وهو الميل إلى أحد الجانبين في الجلوس كما جرت بذلك عادة المترفين عند تناول الطعام ، وعندما يريدون إطالة المسكث مع اقتصاب قليل في النصف الأعلى من الجسم والاستراحة بعد الأكل .

أخرج ابن شيبه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم - أنه نهى أن يأكل الرجل بشماله ، وأن يأكل متكأ ،^(١) وأتت كل واحدة منهم سكيناً ، أى : وأعطت كل واحدة من هؤلاء النسوة سكيناً ليقطعن به ما يأكلن من لحم وفاكهة

« ويؤخذ من هذه الآية السكرية أن الحضارة المادية في مصر في ذلك الوقت كانت قد بلغت شأواً بعيداً ، وأن الترف في القصور كان عظيماً ، فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية ،^(٢) .

وهنا نجد المرأة الجريئة المماكرة ، تقول ليوسف - عليه السلام - كما حكى القرآن عنها : « أخرج عليهن » : أى أبرزهن ، وأدخل عليهن ، وهن على تلك الحالة من الأكل والانكاء ونفطيع ما يحتاج إلى تقطيع الطعام

وهي ترمى من وراء خروجه عليهن إلى إطلاعهن عليه حتى يعذرنها في حبها له وقد كان لهذه المفاجأة من يوسف لهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه ، أثرها القديد في نفوسهن ، وهذا ما حكاه القرآن الكريم في قوله : « فلبسا

(١) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ٢٠٤

(٢) تفسير « في ظلال القرآن » ، ج ١٢ ص ١٩٨٤

رأيناه أكرمه وقطعن أيديهن وقان حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك
كريم . .

والجمله السكرية معطوفة على كلام محذوف دل عليه السياق ، والتقدير :
قالت امرأة العزيز ليوسف أخرج عليهن ، فخرج عليهن وهن على تلك الحالة
فلما رأينه أكرمه ، أى : أعظمنه ، ودهشن لهيبته ، وجمال طلعتة وحسن شمائله

« وقطعن أيديهن ، أى : جرحن أيديهن وخدشنها بالسكاكين التى فى أيديهن .
دون أن يشعن بذلك ، لشدة دهشتن المفاجئة بهيئة يوسف ... »

« وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، وحاش فعل ماض ، واللام فى « حاش » ،
للتعليل ، المراد بهذه الجملة السكرية التعبير عن عجب صنع الله فى خلقه أى :
وقلن عندما فوجئن بخروج يوسف عليهن : نزه الله — تعالى — تنزيها كبيرا
عن صفات العجز ، وتعجب تعجبا شديدا من قدرته — سبحانه — على خلق
هذا الجمل البديع ، وما هذا الذى نراه أمامنا بشراً كسائر البشر ، لتفوقه فى
الحسن عنهم ، وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين . تمثل فى هذه الصورة
البديعة التى تخطب الأبواب .

ووصفوه بذلك بناء على ما ركز فى الطباع من تشبيه ما هو مفرط فى
الجمال والغنى بالملك ، وتشبيه ما هو شديد القبح والسوء بالشیطان .

وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على بنات جنسها ، اللاتى عزلنها فى
حبها ليوسف ، فقالت لهن على سبيل التفاخر والتشفى ، وبدون استحياء أو
تلميح : فذا لکن الذى لم تنتن فىه ،

والفاء هنا فصيحة ، والخطاب للنسوة اللاتى قطعن أيديهن دهشاً من جمال
يوسف ، والإشارة اليه — عليه السلام —

أى : قالت لهن على سبيل النشفي والتباهى والاعتذار عما صدر منها معه :
إن كان الأمر كما قلتن ، فذلك هو الملك الكريم الذى لم تنتن فى حبي له . .

وقلتن ما قلتن في شأنى لافتتانى به ، فالآن بعد رؤيتك له ، وتقطيع أيدى بكن
ذهولا لطلعتك ، قد علمتن أنى معذورة فيما حدث منى معه ...

ثم جاهرت أمامهن بأنها أغرتة بمواقعتها فلم يستجيب فقالت : « ولقد
راودته عن نفسه فاستعصم ... »

أى : ووالله لقد حاولت معه بشتى المغريات أن يطوع نفسه لى ، فأبى
وامتنع امتناعا بليغا ، وتحفظ تحفظا شديدا .

والتعبير بقوله « فاستعصم » للمبالغة في عصمته لنفسه من الزلل ، فالسجين
والقاء للمبالغة ، وهو من العصمة بمعنى المنع . يقال : عصمه الطعام أى : منعه
من الجوع ، وعصم القربة أى : شدها بالعصام ليمنع نزول الماء منها .

وفى الآية — كما يقول الآلوسى — دليل على أنه — عليه السلام — لم
يصدر منه ما سود به القصاص وجوه الطروس (١) — أى الأوراق :

ثم قالت أمامهن بعد ذلك فى تبجح واستهتار وتهديد : « ولئن لم يفعل
ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ،

أى : والله لقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ووالله لئن لم يفعل ما أمره
به ، — وأنا سيديته الآمرة الغاهية لا غيرى — ليسجنن عقوبة له ، وليكونا من
الصاغرين ، أى : من الأذلاء المهانين المقهورين ، من الصغار . يقال صغر
فلان — كفروح — يصغر صغرا وصغارا إذا ذل وهان .

قلوبا : « وأكدت السجن بالنون الثقيلة وبالقسم لتحقيقه فى نظرها ، وأكدت
الصغار بالنون الخفيفة لأنه غير متحقق فيه ، ولأنه من توابع السجن ولوازمه .

وفى هذا التهديد ما فيه من الدلالة على ثقته من سلطانها على زوجها ، وأنه
لا يستطيع أن يعصى لها أمرا ، مع أنه عزيز مصر ...
ويتراعى على مسامع يوسف — عليه السلام — هذا التهديد السافر . . فيلجأ

إلى ربه مستجيرا به . ومحتما بحماه ويقول . ورب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه

أى : قال يوسف - عليه السلام - متضرعا إلى ربه - تعالى - : يارب السجن الذى هددتني به تلك المرأة ومن معها ، أحب إلى ؛ وأثر عندى مما يدعونني إليه من ارتكاب الفواحش .

وقال أحب إلى مما يدعونني إليه ، ولم يقل ما تدعونني إليه امرأة العزيز ، لأنهن جميعا كن مشتركات فى دعوته إلى الفاحشة سواء بطريق مباشر أم غير مباشر ، بعد أن شاهدن هيئته وحسنه . وبعد أن سمعن ما قالت فى شأنه ربة الدار ...

قال الآلوسى : وإسناد الدعوة إليهن ، لأنهن خرفنه من مخالفتها ، وزين له مطاوعتها .

فقد روى أنهم قلن له أطع مرلاتك ، واقض حاجتها ، لتأمن عقوبتها . . وروى أن كل واحدة منهن طلبت الخلوة به لتصيحته ، فلما خلت به دعتة إلى نفسها ...

وقوله : وإن لا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ، اعتراف منه - عليه السلام - بضمفه البشرى الذى لا قدرة له على الصمود أمام الإغراء ، إذا لم يكن معه عون الله - تعالى - وعنايته ورعايته .

و : أصب ، من الصبوة وهى الميل إلى الهوى ، يقال : صبأ فلان يصبو صبوا وصبوة ، إذا مال إلى شهرات نفسه واتبع طريق الشر ، ومنه ريح الصبا ، وهى التى تميل إليها النفوس لطيب نسيمها واعتدال هوائها .

والمعنى : ولما تندفع عني يا إلهى كيده هؤلاء النسوة ، ومحاولاتهن لإيقاعى فى جباثلهن ، أمل إليهن . وأطاعهن على ما يردنه منى ، وأكن بذلك من الجاهلين السفهاء الذين يخضعون لأهوائهم وشهواتهم ، فيقعون فى القبائح والمنكرات .

وقوله — سبحانه — « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه السد العليم » بيان لتقبل الله — تعالى — لدعائه بفضله ورحمته .

أى : فاستجاب الله — تعالى — ليوسف دعاءه وضراعه ، فدفع عنه بله وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن ، بأن أدخل اليأس فى نفوسهن من الط فى استجابته لهن ، وبأن زاده ثباتا على ثباته ، وقوة على قوته ، فلم ينخد بمكرهن ، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو ترهيبهن .

« إنه » سبحانه « هو السميع » لدعاء الداعين ، والمحيب لضراعه المخلصه « العليم » بأحوال القلوب ، وبما تنطوى عليه من خير أو شر :

وقال — سبحانه — « فاستجاب .. بفاء التعقيب الإشارة إلى أنه — سبحانه — بفضله وكرمه ، قد أجاب دعاء عبده يوسف — عليه السلام — بدون تأخير أو إبطا قال الإمام ابن كثير : وقوله — سبحانه — : « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ... » وذلك لأن يوسف — عليه السلام — عصمه الله عصمة عظيمة وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا فى غا مقامات الكمال ، أنه مع شبابه وجماله وكأله ، تدعوه سيديته ، وهى امر عزيز مصر ، وهى مع هذا فى غاية الجلال والمآل والرياسة ، فيمتنع من ذلك ويختار السجن خوفا من الله ، ورجاء فى جوابه .

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال سب يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعه امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، (١) .

ثم سأقت لنا السورة الكريمة بعد ذلك قصة دخول يوسف - عليه السلام - السجن ، مع ثبوت برامته ، مما نسب إليه ، وكيف أنه وهو في السجن لم ينس الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة ماسواه ، وكيف أنه أقام الأدلة على صحة ما بدعوا إليه ، وفسر لصاحبيه في السجن رؤياهما تفسيراً صادقاً صحيحاً ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول:

« ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُؤْثُهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُجْلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ فَبَلَّ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَ السَّجَنِ أَرَأَيْتَ إِنْ تَفَرَّقَ قَوْمٌ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبَ السَّجَنِ أَمَا أَحَدُكُمْ آفِسْتَ مِنْ رَبِّهِ خَمْرًا ، وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَابُ فَأُكَلِّ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ

لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ، اذْكَرْتَنِي عِنْدَ رَبِّكَ ، فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ
ذِكْرَ رَبِّهِ ، فَلَبِثْتَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) » .

وقوله - سبحانه - « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى
حين ، بيان لما فعله العزيز وحاشيته مع يوسف - عليه السلام - بعد أن
ثبتت برأته .

وبدا هنا من البداء - بالفتح - وهو - كما يقول الإمام الرازي - عبارة
تغير الرأي عما كان عليه في السابق .

والضمير في « لهم » يعود إلى العزيز وأهل مشورته .

والمرأة بالآيات : الحجة والبراهين الدالة على براءة يوسف ونزاهته
كانشقاق قيصه من دبر ، وقول امرأة العزيز « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم »
وشهادة الشاهد بأن يوسف هو الصادق وهي الكاذبة ...
والحين ، الزمن غير المحدد بمدة معينة .

والمعنى : ثم ظهر للعزيز وحاشيته ، من بعد ما رأوا وعانوا البراهين
المبعدة الدالة على صديق يوسف - عليه السلام - وطهارة عرضه ...

بدا لهم بعد كل ذلك أن يغيروا رأيهم في شأنه ، وأن يسجنوه في المسد
المعد لذلك ، إلى مدة غير معلومة من الزمان .

واللام في قوله « ليسجننه » جواب أنفسهم محذوف على تقدير القول :
ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين ، والله ليسجننه حتى حين .

ولاشك أن الأمر بسجن يوسف - عليه السلام - كان بتأثير من امر
العزيز ، تنفيذوا تهديدها بعد أن صمم يوسف - عليه السلام - على عصي
فيها تدعوه لإلية ، فقد سبق أن حكى القرآن عنها قولها « ولئن لم يفعل ما آت

ليسجنن وإيكون من الصغارين ، (١) .

ولاشك - أيضا - أن هذا القرار بسجن يوسف يدل على أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها صاحب المنصب الكبير ، فهي تقود ، حيث تريد كما يقود الرجل دابته ...

ولقد عبر عن هذا المعنى صاحب الكشف فقال ماملخصه : قوله ، ثم بدالهم من بعد ما رآوا الآيات ...

وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستئصال المرأة لزوجها ، وقتلها منه في الذروة والغارب ، وكان مطروعة لها ، وجلا ذلولا زمامه في يدها ، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها في سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعده ، وذلك لما أيسر من ضاعته لها ، وطموت في أن يذلل السجين ويسخره لها .

ثم بين - سبحانه - جانباً من أحواله بعد أن دخل السجن فقال : « ودخل معه السجن فتيان ... » .

والفتيان : ثمانية فتي ، وهو من جاوز الحلم ودخل في سن الشباب . قالوا : وهذان الفتيان كان أحدهما : خبازا للملك وصاحب طعامه . وكان الثاني : ساقيا للملك ، وصاحب شرابه .

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ١٣٣ .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٣١٩ . وقوله « وقتلها منه في الذروة والغارب » مثل يضرب لمن يتلطف في خداع غيره ، حتى يتمكن من إخضاعه له ، ومن اقياده لأمره والذروة بالكسر والضم - أعلى الشيء والمراد به هنا أعلى سنام البعير . والغارب المنحني الذي العنق والسنام منه . والمراد أن صاحب الجمل يخفي الخطام يأخذ في التحايل على الجمل حتى يتمكن منه فيضع فيه الخطام ويقوده به .

وقد أدخلهما الملك السجن غضبا عليهما ، لأنهما اتهما بخيانته .

والجملة الكريمة عطف على كلام مخدوف يفهم من السياق . والقدير : بعد أن بدا للعزيز وحاشيته سجن يوسف ، نفذوا ما بدا لهم فسجنوه ، ودخل معه في السجن فتبان من خـدم الملك ، قال أحدهما ، وهو ساقى الملك أيوسف عليه السلام - .

« لاني أراني أعصر خمرا ، أي : لاني رأيت فيما يرى النائم ، أني أعصر عنباً يصير خمرا ، معناه بما يؤول إليه .

« وقال الآخر لاني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً أكل الطير منه ، أي : وقال الثاني وهو خباز الملك ، لاني رأيت في المنام أني أحمل فوق رأسي سلالاً بها خبز ، وهذا الخبز تأكل الطير منه وهو فوق رأسي .

والضمير المجرور في قوله : نبشنا بتأويله إنما نراك من المحسنين ، يعود إلى المرئي في المنام أي : أخبرنا بتفسير ما رأيناه في منامنا ، إنما نراك ونعتقدك من القوم الذين يحسنون تأويل الرؤى ، كما أننا نتوسم فيك الخير والصلاح ، لإحسانك إلى غيرك : من السجناء الذين ألفت واحد منهم .

وقبل أن يبدأ يوسف - عليه السلام - في تأويل رؤياهما ، أخذ يمد لذلك بأن يعرفهما بنفسه ، وبعقيدته ، ويدعوهما إلى عبادة الله وحده ، ويقم لهما الأدلة على ذلك ...

وهذا شأن المصلحين العقلاء المخلصين أمقيدتهم الغيورين على أنزرها بين الناس ، إنهم يسوقون غيرهم من الكلام الحكيم ما يجعل هذا الغير يثق بهم ، ويقبل عليهم ، ويستجيب لهم ...

وهذا ما كان من يوسف - عليه السلام - فقد بدأ في رده عليهما بقوله : « قال لا يا أيكما طعام ترزقانه إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتيكما ... »

أى : قال يوسف لرفيقه فى السجن اللذين سألاه أن يفسر لهما رؤياهما :
لاياتيكما - أيها الرفيقان - طعام ترزقانه فى سجنكما ، فى حال من الأحوال ،
إلا وأخبرتكما بما هيته وكيفيته وسائر أحواله قبل أن يصل إليكما .

ولما قال لهما ذلك ليهرن على صدقه فيما يقول ، فيستجيبا لدعوته لهما
إلى وحدانية الله بعد ذلك .

وقوله : ذاكما عما علمنى ربى ، نفي لما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن علمه
ماخوذ عن الحكمة أو التنجيم أو غير ذلك مما لا يقره الدين .

أى : ذلك التفسير الصحيح للرؤيا ، والإخبار عن المغيبات ، كإخباركما
عن أحوال طعامكما قبل أن يصل إليكما ...

ذلك كله إنما هو العلم الذى علمنى إياه ربى وخالفى ومالك أمرى ، وليس
عن طريق الحكمة أو التنجيم كما يفعل غيرى .

وقوله : عما علمنى ربى ، فيه إشعار بأن ما أخبرهما به من منجيات ، هو جزء
من علوم كثيرة علمها إياه ربه - عز وجل - فضلا منه - سبحانه - وكرما .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : لأنى تركت ملة قوم ، أى دين قوم ، لا يؤمنون
بالله ، أى لا يدينون بالعبودية لله - تعالى - وحده ، الذى خلقهم ورزقهم ،
ولمّا يدينون بالعبودية لآلهة أخرى لا تنفع ولا تضر .

« وهم بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب » هم كفرون ، جاحدون
لما يجب الإيمان به .

وفى هذه الجملة السكينة تعريض بما كان عليه العزيز وقومه ، من إشراك
وكفر ولم يواجه الفتیان بأنهما على دين قومهما ، وإنما ساقى كلامه على سبيل
العموم ، لئلا يزيد فى استئثارهما إليه ، وإقبالهما عليه

وهذا شأن الدعاة العقلاء ، يلتزمون فى دعوتهم إلى الله الحكمة والموعظة
الحسنة ، بدون إحراج أو تنفير .

ولما كان تركه لملة هؤلاء القوم ، يقتضى دخوله فى ملة قوم آخرين ، نراه
يصرح بالملة التى اتبعها فيقول : « واتبعت ملة آبائى ، الكرام المؤمنين
بوحداية الله وبالأخرة وما فيها من حساب وجزاء لإبراهيم وإسحاق ويعقوب » .

وسمى آباء جميعها ، لأن الأجداد آباء . وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب
ثم الأب : ليكون إبراهيم هو أصل تلك الملة التى اتبعها ، ثم تلقاها عنه إسحاق ،
ثم تلقاها عن إسحاق يعقوب - عليهم السلام - .

وفى هذه الجملة الكريمة ، بيان منه - عليه السلام - لرفيقه فى السجن ، بأنه
من سلسلة كريمه ، كلها أنبياء ، فحصل له بذلك الشرف الذى ليس بعده شرف
وقوله : « ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ » ، تنزه عن الشرك بأبلغ وجه .

أى : ما صح وما استقام لنا أن نشرك بالله - تعالى - أى شئ من الإشراك ،
فنحن أهل بيت النبوة الذين عصمهم الله - تعالى - عن ذلك .

ود من ، فى قوله « من شئ » ، لتأكيد النفي وتعميمه . أى ، ما كان لنا أهل
هذا البيت الكريم أن نشرك بالله شيئا من الإشراك ، فليلا ذلك الشئ أو حقيرا .
وقوله ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ... ، اعتراف منه - عليه
السلام - برعاية الله - تعالى - له ولآبائه .

واسم الإشارة . يعود إلى الإيمان بالله - تعالى - المألوف عليه بنفى الشرك .
أى : ذلك الإخلاص لله - تعالى - فى العبادة ، كائن من فضله - سبحانه -
علينا معاشر هذا البيت : وعلى غيرنا من الناس ، الذين هدام إلى الإيمان
الحق .

وقوله ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، إحصاف للقلة الشاكرة
الله - تعالى - .

أى : ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله - على نعمه الجزيلة ، وآلائه
التي لا تحصى .

وبعد أن عرف يوسف صاحبيه في السجن بنفسه وبعلمته وبأبائه ، شرع
يقدم لهم الأدلة على صحة عقيدته ، وعلى فساد عقيدتهما فقال - كما حكى القرائن
هنا - : يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، .

أي : يا صاحبي ورفيقي في السجن . أخبراني بربكما ، أعبادة عدد من
الأرباب المتفرقة في ذواتها وصفاتها ، خير : أم ، عبادة الله ، - تعالى -
الواحد ، في ذاته وصفاته ، القهار ، لكل من غلبه أو فاز به ؟

وكرر نداهما بالصحة ليتحجب لهما بهذه الصفة التي فيها لا يناسر للقلوب ،
وليسترعى انتباهها إلى ماسيقوله لهما .

قال صاحب المنار مالمخصه : وقوله « أرباب متفرقون خير ... » ، هذا
استفهام تقرير بعد تحبير ، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد ، وكان المصريون
المخاطبون به ، يعبدون كثيرهم من الأمم أربابا متفرقين في ذواتهم وفي صفاتهم
وفي الأعمال التي يسندونها إليهم زعمهم ، فهو يقول لصاحبيه « أرباب متفرقون »
أي : عبيدون هذا شأنهم في التفرق والإنقسام ، خير : أم لا ، أم الله
الواحد القهار ... ، (١)

ولاشك أن الجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان ، أن عبادة الله - تعالى -
الواحد القهار ، هي العبادة الصحيحة التي توافق الفطرة السليمة والعقول القويمة .
ثم انتقل يوسف - عليه السلام - إلى تفنيد العقائد الباطلة ، والأوهام
السكاذبة فقال : « ما تعبدون من دونه » أي من دون الله - تعالى - المستحق للعبادة .
« إلا أسماء » أي إلا ألفاظا فارغة لا قيمة لها .

« سميتوها » آلهة بزعمكم ، أنتم وآباؤكم ، أما هي فليس لها من هذا
الإسم المزعوم ظل من الحقيقة ، لأنها مخلوقة وليست خالقة ، ومرزوقة وليست
رازقة ، وزائلة وليست باقية ، وما كان كذلك لا يستحق أن يكون إلها .

ومفعول « سميتوها » الثاني محذوف ، والتقدير سميتوها آلهة .
 - وقوله « وآبائكم » لقطع عندهم ، حتى لا يقولوا : إنما وجدنا آباءنا كذلك
 يفعلون ، فكانه - سبحانه - يقول لهم : إن آباءكم كانوا أشد منكم جهلا
 وضللا ، فلا يصح لكم أن تقتدوا بهم .

والمراد بالسلطان في قوله - تعالى - « ما أنزل الله بها من سلطان » الحجة
 بالبرهان .

أى : ما أنزل الله - تعالى - بتسميتها آرباينا - كما سميتوها بزعمكم - من
 برهان أو دليل يشعر بتسميتها بذلك ، وإنما أنتم الذين خلعتم عليها هذه الأسماء .
 وقوله « إن الحكم إلا لله » لإبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم ..

أى : ما الحكم في شأن العقائد والعبادات والمعاملات وفي صنعها أو عدم
 صنعها إلا لله - تعالى - وحده ، لأنه الخالق لكل شيء ، والعليم بكل شيء .

وقوله « أمر أن لا تعبدوا إلا إياه » لانتقال من الأدلة الدالة على وحدانيته
 - سبحانه - ، إلى الأمر بإخلاص العبادة له وحده .

أى : أمر - سبحانه - عباده أن لا يجعلوا عبادتهم إلا له وحده ، لأنه هو
 بالقيم وراؤهم ، وهو يحيمهم ويميتهم .

ثم ختم « سبحانه » الآية الكريمة بقوله : « ذلك الذين القيم ولكن أكثر
 الناس لا يعلمون » ،

أى : ذلك الذى أمرناكم به من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى -
 وحده ، هو الدين القيم .

أى : الحق المستقيم لثابت ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم ،
 لاستيلاء الشهوات والمطامع على نفوسهم .

وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه ، وأقام لهما الأدلة على
 أن عبادة الله - تعالى - وحده هى الدين الحق ودعاهما إلى الدخول فيه ..

بعد كل ذلك شرع في تفسير رؤياهما باليزيد هائلة في قوله ، فقال : « يا صاحبي السجن أما أحدهما ، وهو ساقى الملك ، فيخرج من السجن برئاً ويسقى ربه . أى : سيده الملك ، خيراً . »

« وأما الآخر ، وهو خباز الملك وصاحب طعامه ، فيصلب ، أى : فيقتل ثم يصلب » فتأكل الطير من رأسه « بعد موته . »

ولم يعين يوسف - عليه السلام - من هو الذى سيسقى ربه خيراً ، ومن هو الذى سيصلب ، وإنما اكتفى بقوله « أما أحدهما ... » وأما الآخر ، تطلقاً معهما ، وتخرجاً من مواجهة صاحب المصير السوء بمصيره ، وإن كان في تعبيره ما يشير إلى مصير كل منهما بطريق غير مباشر .

ثم أكد لهما الأمر وانقا من صدق العلم الذى عليه الله إياه ، فقال : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، . »

والاستفتاء : مصدر استفتى إذا طلب الفتوى من غيره في أمر خفى عليه فهمه أى : تم التفسير الصحيح لرؤياكما اللتين سألتني عن تأويلهما .

ثم ختم يوسف - عليه السلام - حديثه مع صاحبيه في السجن ، بأن أوصى الذى سينجو منهما بوصية حكاهما القرآن في قوله : « وقال للذى ظن أنه ناجج منهما ، اذ كرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكراً ربه ، فلبث في السجن بضع سنين . »

أى : « وقال ، يوسف - عليه السلام - للفقى الذى اعتقد أنه سينجو منهما وهو ساقى الملك ، أيها الساقى بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك ، اذكر حقيقة حالى عنده ، وأنى سجين مظلوم . »

ولكن الساقى بعد أن عاد إلى عمله عند الملك ، لم ينفذ الوصية ، لأن الشيطان أنساه ما قاله له يوسف ، فكانت النتيجة أن لبث يوسف - عليه السلام - في السجن مظلوماً بضع سنين .

والبضع - بالكسر - من ثلاث إلى تسع ، وهو ما حرد من البضع - بالفتح - بمعنى القطع والشق . يقال : بضعت الشيء أى : قطعته .

وقد اختلفوا فى المدة التى قضاهـا يوسف فى السجن على أقوال من أشهرها أنه لبث فيه سبع سنين .

وعلى هذا التفسير يكون الضمير فى « فأنساه » يعود إلى ساقى الملك ، ويكون المراد بربه أى : سيده ملك مصر .

وهناك من يرى أن الضمير فى قوله « فأنساه » يعود إلى يوسف - عليه السلام - وأن المراد بالرب هنا : الخالق - عز وجل - ، وعليه يكون المعنى : وقال يوسف - عليه السلام - للمنى الذى اعتقد نجاته وهو ساقى الملك ، اذكر مظلمتى عند سيدك الملك عند ما تعود إليه ، واذكر له إحسانى لتفسير الرؤى

وقوله « فأنساه الشيطان ذكر ربه » أى : فأنسى الشيطان يوسف أن يذكر حاجته لله وحده ، ولا يذكرها للساقى ليبلغها إلى الملك .

فكانت النتيجة أن لبث يوسف فى السجن بضع سنين بسبب هذا الاعتماد على المخلوق .

والذى يبدو لنا أن التفسير الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ، وقال الذى نجاتهما وادكر بعد أمة أنا أقبشكم بتأويله فأرسلون ... يدل دلالة واضحة على أن الضمير فى قوله « فأنساه » يعود إلى ساقى الملك . وأن المراد بربه أى سيده .

وقد علق الإمام الرازى على هذه الآية تعليقا يشهر بترجيحه للرأى الثانى فقال ماملخصه : واعلم أن الاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذا وإن كان جائزا لعامة الخلق ؛ إلا أن الأولى بالصدقين أن يقطعوا نظارهم عن الأسباب بالكلية ، وألا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب

ثم قال : والذي جربته من أول عمرى إلى آخره أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله ، صار ذلك سبباً إلى البلاء وإلى الخفة وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى إلى هذا الوقت الذى بلغت فيه السابعة والخمسين من عمرى .

ثم قال : واعلم أن الحق هو قول من قال أن الضمير فى قوله : فأنساه الشيطان ذكر ربه ، راجع إلى يوسف .. والمعنى : أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه وخالفه (١)

ونحن مع احترامنا لرأى الفخر الرازى . إلا أننا مازلنا نرى أن عودة الضمير فى قوله : فأنساه ، إلى الساقى الذى ظن يوسف أنه هو الناجى من العقوبة ، أولى لما سبق أن ذكرناه .

قال ابن كثير قوله : اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه أى : قال يوسف اذكر قصتى عند ربك وهو الملك ، فأنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك ، وكان نسيانه من جملة مكاييد الشيطان هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله ، فأنساه .. عائد على الناجى كما قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد (٢)

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا بأسلوبها المصنوع الحكيم جانباً من حياة يوسف - عليه السلام - فى السجن فإذا كان بعد ذلك ؟ لقد كان بعد ذلك أن أراد الله - تعالى - فتح باب الفرج ليوسف - عليه السلام - ، وكان من أسباب ذلك أن رأى الملك فى منامه رؤيا أفزعته ، ولم يستطع أحد تأويلها فتأويلها صحيحاً موى يوسف - عليه السلام - . استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول :

(١) تفخیر الفخر الرازى ج ١٨ - ١٤٤ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ١٦ ص ٣١٦ طبع دار الشعب وراجع تفسير المنار ج ١٢ ص ٣١٣

« وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ ،
وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ ، يَأْكُلُهَا الْمَلَآءِئِقُوتُ فِي رُؤْيَايَ
إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبِرُونَ (٤٣) » قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ
الْأَحْلَامِ بِمَا لَيْنَ (٤٤) » وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمْرِهٖ ، أَنَا أَنَبِئُكُمْ
بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) » يَوْسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ ، وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ ، لَعَلِّي
أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) » قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سَنِينَ دَأْبًا ،
ثُمَّ حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنبُلَةٍ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨)
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْمُرُونَ (٤٩) » .

فقوله - سبحانه - « وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف .. » شروع فى حكاية الرؤيا التى رآها ملك مصر فى ذلك الوقت ..

قال ابن كثير : هذه الرؤيا من ملك مصر . مما قدر الله - تعالى - أنها كانت
سببا لخروج يوسف -- عليه السلام -- من السجن ممرزا مكرما ، وذلك أن
الملك رأى هذه الرؤيا ، فهالته وتعجب من أمرها ، وما يكون نفسيرها ، فجمع
الكهنة وكبراء دولته وأمرأهه ، وقص عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها ،
فلم يعرفوا ذلك ... (١) .

وقوله - عجاف ، جمع عجفاء والعجف - بفتح العين والجيم - ذهاب السمن ،
يقال هذا رجل أعجف وامرأة عجفاء . إذا ظهر ضعفهما وهزالهما ...

أى : وقال ملك مصر فى ذلك الوقت لكبار رجال مملكته ، إننى رأيت
فيما يرى النائم سبع بقرات ، قد امتلأن شجما ولحما ، يأكلن سبع عجاف ،
أى : يأكل هذه البقرات السبع السمان ، سبع بقرات أخرى عجاف أى :
مهزلة ضعاف .

ورأيت - أيضا - فيما يرى النائم سبع سنبلات خضر ، قد امتلأت
حباً ، ورأيت إلى جانبها سبع سنبلات ، أخر يابسات ، قد ذهبت نضارتهما
وخضرتهما : ومع هذا ، فقد لتوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها .

يا أيها الملك ، أى : الأشراف والعلماء من قوى ، أفترونى فى رؤياى ، أى :
فسروا لى رؤياى هذه ، وبينوا لى ما تدل عليه .

• إن كنتم للرؤيا تعبرون ، أى : إن كنتم تعرفون تفسيرها وتأويلها معرفة
سطيعة ، وتعلمون تعبيرها علما مستمرا .

و «تعبرون» من العبر ، وهو اجتياز الطريق أو النهر من جهة إلى أخرى ،
وسمى المفسر للرؤيا عابرا ، لأنه يتأمل فيها ويتنقل من كل طرف فيها إلى الطرف
الآخر ، كما ينتقل عابر النهر أو الطريق من جهة إلى أخرى .

قال بعض العلماء والتعريف فى «الملك» للعهد ، أى ملك مصر ، وسماه القرآن
هنا ملكا ولم يسمه فرعون ، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر
القط ، وإنما كان ملكا لمصر أيام أن حكمها «الهكسوس» وهم العمالة ...
الذين ملكوا مصر من ١٩٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٥٢٥ ق م ...

فالتعبير عنه بالملك هنا ، دون التعبير عنه بفرعون ، مع أنه عير عن ملك
مصر فى زمن موسى بفرعون ، يعتبر من دقائق إعجاز القرآن العلمى ... (١)

وقال • فى أرى .. بصيغة المضارع ، مع أنه قد رأى بالفعل ، لاستحضار
لصورة الرؤيا حتى لسكانها ماثلة أمامه .

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٢ ص ٢٨٠ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

وقال : وأخريابسات ، بدون إعادة لفظ سبع كما في البقرات ، للاكتفاء بدلالة المقابل في البقرات عليه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : دل في الآية دليل على أن السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر ؟

قلت : الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السبان والعجاف والسنبال الخضر ، فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع ، ويكون قوله : وأخر يابسات ، بمعنى : وسبعا آخر يابسات ، (١) .

وفي نداء الملك لقومه بقوله : يا أيها الملأ أقتوني ... ، تنريف لهم ، وحض على استعمال عقولهم وعلومهم في تفسير هذه الرؤيا التي أزعجته .

واللام في قوله : للرؤيا ، لتقوية الفعل « تعبرون » ، حيث تأخر عن معمله . ويبدو أن القوم في ذلك الزمان ، كان بعضهم يشتغل بتفسير الرؤى ، وكان لهذا التفسير مكانته الهامة فيهم ...

فقد مرت بنا رؤيا يوسف ، ورؤيا ريفية في السجن ، ثم جاءت رؤيا الملك هنا ، وهذا يشعر بأن أفراد يوسف - عليه السلام - بتأويل رؤيا الملك ، في زمن كثر فيه البارعون في تأويل الرؤى ، كان بمثابة معجزة أو ما يشبه المعجزة من الله - تعالى - ليوسف - عليه السلام - حتى تزداد مكانته عند الملك وحاشيته .

وقوله - سبحانه - (قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) حكاية لما ردد به الكهان والأشراف على ما طلبه الملك منهم .

والأضغاث : جمع ضغث - بكسر الضاد - وهو ما جمع في حزمة واحدة من مختلف النبات وأعواد الشجر ، فصار خليطا غير متجانس .

والأحلام : جمع حلم وحلم - بإسكان اللام - وضعها تبعا للحاء - وهو ما يرام

النائم في منامه ، وتطلق كثيرا على ما ليس بحسن ، ففي الحديث الصحيح :
(الرقيا من الله والحلم من الشيطان)^(١)

أى : قال الملائكة للملك : ما رأيته أيها الملك في نومك ما هو إلا تخاليط
أحلام ومنامات باطلة . فلا تتم بها .

فهم قد شبهوا ما رآه بالأضغاث في اختلاطها ، وعدم التجانس بين أطرافها .
ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) .

أى : لأننا لسنا من أهل العلم بتفسير تخاليط الأحلام ، وإنما نحن من
أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة . .

وقولهم هذا إنما هو اعتذار عجز جهلهم ، بمعرفته تفسير رؤيا الملك ،
ويبدو أن الملك كان يتوقع منهم هذا الجمل ، كما يشعر به قوله - تعالى -
(إن كنتم للرؤيا تعبرون) فقد أنى بأن المفيدة للشك .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما هو إلا حلم واحد فلماذا قالوا
أضغاث أحلام فجمعوا ؟

قلت : عو كما تقول فلان بركب الخيل ، ويلبس عمامة الخبز ، لمن لا يركب
إلا فرسا واحدا وماله إلا عمامة فردة ، تزيد في الوصف . فهو لاء أيضا
تزيدوا في وصف الحلم بالبطالان فجعلوه أضغاث أحلام . ويجوز أن يكون
قد قص عليهم مع هذه الرقيا سواها ،^(٢) .

ثم بين - سبحانه - ما حدث بعد أن عجز الملائكة عن قوم الملك عن تأويل
رؤياه فقال : (وقال الذى نجا منهما) أى : وقال أحد الرجلين الذين كانا مع
يوسف في السجن ثم خرج منه برئنا وهو ساقى الملك .

(١) صحيح البخارى - كتاب التعبير ج ٩ ص ١٧

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٢٤

... (واذكر بعد أمة) أى : وتذكر بعد حين طويل من الزمان كيف قسم يوسف رؤياه تفسيراً صادقاً أيام أن كان معه فى السجن .

وأصل (اذكر) إذكر بوزن افعل ، مأخوذ من الذكر - بتشديد الذ وضماً - قلبت تاء الافعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيهما ، ثم قلبت الد دالا ليتأتى إدغامها فى الدال ، لأنها أخف من الدال .

والأمة : الجماعة التى تؤم وتقصداً لمرما ، والمراد بها هنا : المدة المتطاول من الزمان وكان هذا الساقى قد نسي ما أَرْضاه به يوسف من قوله (اذكر عند ربك) فلما قال الملك ما قاله بشأن رؤياه ، تذكر هذا الساقى حال يوسف قالوا : وكان ذلك بعد سنتين من خروجه من السجن .

وقوله (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أى : قال الساقى الملك وحاشيته أنا أخبركم بتأويله بتفسير رؤيا الملك التى خفى تفسيرها على الملأ من قوم فأرسلون أى : فابعثونى إلى من عنده العلم الصحيح الصادق بتفسيرها . ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه ، وهو يوسف - عليه السلام - لأنه لو أن يفاعتهم بخبره بعد حصول تأويله للرؤيا ، فيكون ذلك أوقع فى قلوبهم وأسمى لشأن يوسف - عليه السلام - .

وقال (فأرسلون) ليشعرهم أن هذا التأويل ليس من عنده نفسه ، وإنما من عند من سيرسلونه إليه وهو يوسف - عليه السلام - .

وقوله (يوسف أيها الصديق أفنتا ...) من بديع الإيجاز بالحذف القرآن الكريم ، لأن المحذوف لا يتعلق بذكره غرض .

والتقدير : قال لهم أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون إلى من عنده العلم بذلك فأرسلوه فجاء إلى يوسف فى السجن فقال له : يا يوسف يا أيها الصديق .

والصديق : هو الإنسان الذى صار الصديق دأبه وشيمته فى كل أحو ووصفه بالملك لأنه جرب منه الصديق التام أيام أن كان معه فى السجن .

وقوله (أفنتا ، أى فسرنا لك الرؤيا التى رآها الملك ، واتى عجزنا

عن تفسيرها ، وهى أن الملك رأى فى منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات ،

وقوله : لعل أرجع إلى الناس لعلمهم يعلمون ، لتعليل لطلب الفتوى ، وبيان لأهميتها بالنسبة له وليوسف — عليه السلام —

أى : فسر لنا هذه الرؤيا ، لعل أرجع إلى الناس ، وهم الملك وأهل الحل والعقد فى مملكته ، لعلمهم يعلمون ، تأويلها ، فيفتقرون به ، وترتفع منزلتك عندهم .

وهنا نجد يوسف — عليه السلام — لا يكتفى بتأويل الرؤيا تأويلا مجردا بل يؤولها تأويلا صادقا صحيحا ، ومعه النصح والإرشاد إلى ما يجب عمله فى مثل هذه الأحوال ، فقال : دكا حكي القرآن عنه - : قال تزرعون سبع سنين دأبا

وتزرعون هنا خبر فى معنى الأمر ، بدليل قوله بعد ذلك ، « فذروه ، وعبر عن الأمر بالمضارع مبالغة فى التعبير عن استعجابهم لتصيحته ، فكأنهم قد امتثلوا أمره ، وهو يخبر عن هذا الإعتقال .

و دأبا ، مصدر دأب على الشيء إذا استمر عليه ولازمه . يقال دأب فلان على فعل هذا الشيء يدأب دأبا ودأبا إذا داوم عليه ، وهو حال من ضمير « تزرعون ، أى قال يوسف للساقى . فراجع إلى قومك فقل لهم إن يوسف يأمركم أن تزرعوا أرضكم سبع سنين زراعة مستمرة على حسب عادتكم .

دفا حصدتم ، من زرعكم فى كل سنة « فذروه فى سنبله ، أى : فاتركوا الحب فى سنبله ولا تخرجوه منها حتى لا يتعرض للتلف بسبب السوس أو ما يشبهه ، إلا قليلا مما تأكلون ، أى : اتركوا الحب فى سنبله فلا تخرجوه منها ، إلا شيئا قليلا منه وأخرجوه من السنابل لحاجتكم إليه فى ما كلكم .

وفى هذه الجملة إرشاد لهم إلى أن من الواجب عليهم أن يقتصدوا فى ما كولاتهم إلى أقصى حد ممكن لأن المصلحة تقتضى ذلك .

والسنبلات اليابسات بالسنتين السبع الجديدة التى ستأتى فى أعقاب السنتين المخصبة
وفسر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السليمة ، بأكلهم ما جمع فى السنتين
المخصبة ، فى السنتين الجديدة .

ولقد كان هـ ذا التأويل لرؤيا الملك تأويلا صحيحا صادقا من يوسف
— عليه السلام — ، بسببه أنقذ الله — تعالى — مصر من مجاعة سبع سنين .
وقوله : ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغات الناس وفيه يعصرون ، نبشير
لهم بأن الخير سيأتىهم بعد تلك السنوات الشداد ، فقد جرت سنة الله — تعالى —
أن يعقب العسر باليسر .

ولفظ « يغات » ، من الغوث بمعنى إزالة الهم والكرب عن طريق الأمطار
التي يسوقها الله — تعالى — لهم بعد تلك السنوات الشداد التي قل فيها المطر
يقال : غاث الله — تعالى — البلاد غيثا ، إذا ساق لها المطر بعد أن
يقتسوا من نزوله . ويعصرون من العصر وهو الضغط على ما من شأنه أن
يعصر . لإخراج ما فيه من مائع سواء كان هذا المائع زيتا أم ماء أم غيرهما .
أى : ثم يأتى من بعد تلك السنتين السبع الشداد ، عام فيه نزول الهموم
والكروب وفقد الأموال عن الناس ، بسبب إرسال الله — تعالى —
المطر عليهم ، فتخضر الأرض وتنبث من كل زوج بهيج ، وفيه يعصرون من
ثمار مزرعاتهم ما من شأنه أن يعصر كل زيتون وما يشبهه .

وهذا كفايه عن بدء حلول الرخاء به ، بعد تلك السنوات الشداد وما قل
يوسف — عليه السلام — عن هذا العام الذي يأتى فى أعقاب السنوات السبع
الشداد ، لا مقابل له فى رؤيا الملك ، بل هو خارج عنها ، وذلك لزيادة
التبشير للملك وللناس ، ولأفهامهم أن هذا العلم إنما يوحى من الله — تعالى —
الذي يجب أن يخلص له الجميع العبادة والطاعة .

ولمّا هنا نرى أن يوسف — عليه السلام — قد فسر رؤيا الملك تفسيراً
سليماً حكماً ، من نتائج الخير للملك وقومه

فإذا فعل الملك مع يوسف — عليه السلام — بعد ذلك ؟

لقد قص علينا القرآن الكريم ما طلبه الملك من حاشيته وما رد به يوسف — عليه السلام — على رسول الملك ، وما قالته النسوة وأمرأة العزيز في شأن يوسف وما طلبه — عليه السلام — من الملك ، إستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه الخاص فيقول :

« وَقَالَ الْمَلِكُ اانْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ، قُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ، أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنِ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ اانْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُكَ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) » .

فقوله — سبحانه — « وَقَالَ الْمَلِكُ اانْتُونِي بِهِ ، ... » حكاية لما طلبه الملك في ذلك الوقت من معارفه في شأن يوسف — عليه السلام — ، وفي الكلام حذف يفهم من المقام ، والتقدير :

وقال الملك بعد أن سمع من ساقيه ما قاله يوسف في تفسير الرؤيا، أحضروا لي يوسف هذا لأراه وأسمع منه ، واستفيد من علمه .

وهذا يدل - كما يقول الامام الرازي - على فضيلة العلم ، فإنه - سبحانه - جعل ما عليه ليوسف سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الآخروية ؟ (١) .

وقوله - سبحانه - « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » ، إن ربى بكيمدهن عليم ، بيان لما قاله يوسف - عليه السلام - لرسول الملك

أي : فلما جاء رسول الملك إلى يوسف ليخبره بأن الملك يريد انقضاءه ، وقال له يوسف بأناته وإبائه : ارجع إلى ربك ، أى إلى سيدك الملك . فأسأله ، قبل خروجه من السجن وذهابى إليه « ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » ، أى : ما حالهن ، وما حقيقة أمرهن معى ، لأن السكشاف عن حقيقة أمرهن معى يهمنى أن يكون واضحاً فى الأذهان والعقول ، حتى يعرف الجميع أننى برىء ، وأننى نقي للمرض طاهر الذليل .

والمراد بالسؤال فى قوله « ارجع إلى ربك فأسأله ... » الحث والتحريض على معرفة حقيقة أمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن ...

ولم يكشف له يوسف عن حقيقة أمرهن معه لزيادة تهيجه على البحث والتقصي إذ من شأن الإنسان - خصوصاً إذا كان حاكماً - أن يأنف من أن يسأل عن شئ مهم ، ثم لا يهتم بالإجابة عنه .

وقد آثر يوسف - عليه السلام - أن يكون هذا السؤال وهو فى السجن ، لتظاهر الحقيقة خالصة ناصعة ، دون تدخل منه فى شأنها .

وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز ، وفاء

يلقى زوجها ، واحترازاً من مكرها ، ولأنهن كن شواهد على إقرارها بأنها قد راودته عن نفسه ، فقد قالت أمامهن بكل تبجح وتكشف : فذلكن الذى راودتنى فيه . واقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين .

واكتفى بالسؤال عن تقطيع أيديهن ، دون التعرض لكيدهن له ، ستراً لهن ، وتنزهاً منه - عليه السلام - عن ذكرهن بما يسوؤهن .

ولذا فقد اكتفى بالإشارة الإجمالية إلى كيدهن ، وفوض أمرهن إلى الله تعالى - فقال : **إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** .

أى إن ربى وحده هو العليم بمكرهن بى ، وكيدهن لى ، وهو - سبحانه - هو الذى يتولى حسابهن على ذلك .

ولا شك فى أن امتناع يوسف - عليه السلام - عن الذهاب إلى الملك إلا بعد التحقيق فى قضيتة ، يدل دلالة واضحة على صبره ، وسمو نفسه ، وعلو همته

واقعد أحاد صاحب الكشف فى تعليقه لامتناع يوسف عن الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تثبت برأته فقال :

لَمَّا نَأَى وَتَثَبْتُ يَوْسُفَ فِي إِجَابَةِ الْمَلِكِ، وَقَدِمَ سُؤَالُ النِّسْوَةِ، لِيُظْهَرَ بِرَأْيِهِ بِسَاحَتِهِ عَمَّا قَرَفَ بِهِ وَسَجَنَ فِيهِ ، لَمَّا يَتَسَلَّقُ بِهِ الْحَاسِدُونَ إِلَى تَقْيِيحِ أَمْرِهِ عِنْدَهُ ، وَيَجْعَلُوهُ سَلَامًا إِلَى حِطِّ مَنَزَلَتِهِ لَدَيْهِ ، وَلَمَّا يَقُولُوا : مَا خَلِمَ فِي السِّجْنِ إِلَّا لِأَمْرِ عَظِيمٍ ، وَجَرَمٍ كَبِيرٍ ، حَقَّ بِهِ أَنْ يَسْجَنَ وَيَذَبَّ ، وَيَسْتَكْفِ شَرَّهُ .
وفيه دليل على أن الإجتهد فى قنى التهم ، واجب وجوب انتفاء الوقوف فى موافقها ، (١) .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث فى فضيل يوسف - عليه السلام - فقال ما ملخصه :

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك - أى على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته من براة ساحتته ونزاهه عرضه - ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : رب أرني كيف نبحي الموتى ؟ قال : أأرلم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، ويرحم الله لوطا ، لقد كان بأوى إلى ركن شديد . ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة في قوله - تعالى - : فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن . . . ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر .

وروى عبد الرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سئل عن البهرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبته حتى أشرط أن يخرج جوفى .

ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له ، حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرته إلى الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر ، (١) . هذا ، وقوله - سبحانه - : قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه . حكاية لما فعله الملك بعد أن بلغه الرسول بما طلبه يوسف منه .

وفي الكلام حذف يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن رجع رسول الملك إليه وأخبره بما قاله يوسف ، استجاب الملك لما طلبه يوسف منه ، فأحضر النسوة وقال لهن : ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه . . . والخطب : مصدر خطب يخطب ، ويطلق - غالبا - على الأمر المهم الذي يجعل الناس يتحدثون فيه كثيرا ، وجمعه خطوب .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١٧ . وما ورد في هذه الأحاديث إنما هو من باب التواضع من سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلا فإنه - صلى الله عليه وسلم - أقوى الرسل عزما ، وأرفعهم مقاما ، وأشدهم صبرا .

والمعنى : بعد أن جمع الملك النسوة قال لهن : ما الأمر الهام الذى جعلكن فى الماضى على أن تراودن يوسف عن نفسه ؟ وهل وجدتن فيه ميلا إلى الإستجابة لسكران ؟ ..

قال صاحب الظلال ماملخصه : والخطب الأمر الجليل ... فكان الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن ، وهو المعتاد فى مثل هذه الأحوال ، لئلا يكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه ، فهو يواجههن مقررأ الإتهام ، ومشيرأ إلى أمرهن جلل ...

ومن هذا نعلم شيئا عما دار فى حفل الاستقبال فى بيت الوزير ، ما قالته النسوة ، ليوسف ، وما لحن به وأشارن إليه ، من الإغراء الذى بلغ حد المراودة .

ومن هذا فتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى فى ذلك العهد المورغل فى التاريخ ، فالجاهلية هى الجاهلية دائما ، وأنه حينما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذى يرتدى ثياب الأراستقراطية ، (١) .

وأمام هذه المواجهة التى واجههن بها الملك ، لم يملك الإنكار ، بل قلن بلسان واحد : « حاشا لله ، أى : معاذ الله .

« ما علمن عليه من سوء . قط ، وإنما الذى علمناه منه هو الاستحصام عن كل سوء .

وهنا ، قالت امرأة العزيز ، ويبدو أنها كانت حاضرة معهن عند الملك ، « الآن حصحص الحق ، أى : الآن ظهر الحق وانه كشف انكشافا تاما بعد أن كان خافيا والفعل حصحص أصله حصص بكما قيل ، كيكب فى كب ، وهو مأخوذ من الحصص بمعنى الاستئصال والإزالة ، تقول : فلان حصص شعره إذا استأصله وأزاله فظهر ما كان خافيا من تحته

(١) فى ظلال القرآن ج ١٢ ص ١٩٥٥ .

ثم أضافت إلى ذلك قولها : أنا راودته عن نفسه ، أي : أنا التي طلبت منه ما طلبت ، وزنه لمن الصادقين ، في قوله : هي راودتني عن نفسي ، . . . وهكذا يشاء الله - تعالى - أن تثبت برائة يوسف على رؤوس الأشهاد ، بتلك الطريقة التي يراها الملك ، وتنطق بها امرأة العزيز ، والنسوة اللاتي قطعن أيديهن .

قال صاحب الكشف : ولا مزيد على شهادتهن له بالبرائة والنزاهة ، واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قرنته به لآتهن خصومه ، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال (١) - إذ الفضل ما شهدت به الأعداء . -

ثم واصلت امرأة العزيز حديثها فقالت : ذلك ليعلم أنني لم أخذه بالغيبة وأن الله لا يهدي كيد الخائنين .

أي : ذلك الذي قلته واعترفت به على نفسي من أنني راودته عن نفسه ، وإنما قلته ليعلم يوسف أنني لم أخذه في غيبته ، ولم أقل فيه شيئا يسوؤه بعد أن فارقتي ، ولست بعيدا عني في السجن بضع سنين ، وإنما أنا أقرر أمام الملك وحاشيته بأنه من الصادقين

ولما قررت ذلك لأن الله - تعالى - لا يهدي كيد الخائنين ، أي : لا ينفذ كيدهم ولا يسدده ، بل يفضحه ويزدقه ولو بعد حين من الزمان . لذا فآنا التزمنا الأمانة في الحديث عنه ، وابتعدت عن الخيانة ، لأن الله - تعالى - لا يرضاها ولا يقبلها .

فأنت ترى أن هذه المرأة التي شهدت على نفسها شهادة لا تقبالي بما يترتب عليها بشأنها ، قد عللت شهادتها هذه بعلتين :

١ - إحداها : كراهتها أن تخونه في غيبته بعد أن فقد الدفاع عن نفسه وهو في السجن . . .

وثانيم : عليها بأن الله - تعالى - لا يهدي كبد الخائنين ولا يسدده ،
ولأننا يبطله ويرهقه ...

ثم أضافت إلى كل ذلك قولها ، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ،
إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ،

أي : ومع أني أعترف بأنه من الصادقين ، وأعترف بأنني لم أخنه بالغيث ،
إلا أنني مع كل ذلك لا أبرئ نفسي ولا أنزهها عن الميل إلى الهوى ، وعن
محاولة وصفه بما هو بريء منه ، فأنا التي قلت لزوجي في حالة دهشة وانفهام إلى
الشديد ، ما جزاء من أراد يأهلك سوءا إن أن يسجن أو عذاب أليم ، وما حملن
على هذا القول إلا هواي وشهوأتي ، ونفسي ، إن النفس البشرية لكثيرة
الأمراض صاحبها بالسوء - إلا نفسا رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ،
كنفس يوسف - عليه السلام -

وجملة : إن ربي غفور رحيم ، تعليل لما قبلها ، أي : إن ربي كثير الغفران
وكثير الرحمة ، لمن يشاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .

والذي يتأمل هذا الكلام الذي حكاه القرآن عن امرأة العزيز ، يراه زاخرة
بالصرخة التي ليس بعدها صراخة ، وبالمشاعر والانفعالات الدالة على إحترامها
ليومئذ الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، رغم الإغراءات
المصحوبة بالترغيب والترهيب ، ويبدو لنا - والله أعلم - أن هذا الكلام
ما قالته امرأة العزيز ، إلا بعد أن استنفرت عقيدة الإيمان التي آمن بها يوسف
في قلبها ، وبعد أن رأت فيه إنسانا يختلف في استبصارها بالله ، وفي سمو نفسه
عن غيره من الناس الذين رأتهم .

هذا ، وبرى كثير من المفسرين أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند قوله
- تعالى - : ولله لمن الصادقين ، وأن قوله - تعالى - بعد ذلك ، ذلك ليعلم أنني
لم أخنه بالغيث . . . إلى قوله - تعالى - ، إن ربي لغفور رحيم ، هو من
كلام يوسف - عليه السلام - : فيمكن المعنى .

«ذلك ليعلم، أى العزيز «أنى لم أخنه» فى أهله «بالغيب» أى فى غيبته «وأن الله لا يهدى كيد الخائنين» من النساء والرجال، بل يبطل هذا الكيد ويفضحه.

«وما أبرئ نفسي» أى : ولا أنزهها عن السوء، وهذا من باب التواضع منه - عليه السلام - «إن النفس لأماراة بالسوء» أى : إن هذا الجنس من الأنفس البشرية، شافه الأمر بالسوء والميل إلى الشهوات .

«إلا ما رحم ربي» من النفوس فعصمها عن أن تكون أماراة بالسوء .
«إن ربي غفور رحيم» لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من خلقه .

والذى نراه أن الرأى الأول الذى سرفا عليه هو الجدير بالقبول، لأنه هو المناسب لسياق الآيات من غير تكلف، ولأنه لا يودى إلى تفكك الكلام وانقطاع بعضه عن بعض، بخلاف الرأى الثانى الذى يرى أصحابه أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند قوله - تعالى - «ولأنه لمن الصادقين» فإنه يودى إلى تفكك الكلام، وعدم ارتباط بعضه ببعض، فضلا عن أن وقائع التاريخ لا تؤيده، لأن يوسف - عليه السلام - كان فى السجن عندما أحضر الملك الفسرة وقال لهن : «ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ...

وعندما قالت امرأة العزيز أمام الملك وأمامهن : الآن حصحص الحق ... إلى قوله - تعالى - «إن ربي غفور رحيم» .

ومن المفسرين الذين أيدوا الرأى الأول الإمام ابن كثير فقد قال مملخصه :
«ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ...» تقول : لما اعترفت بهذا على نفسي ...
«بأنى راودت هذا الشاب فامتنع» وما أبرئ نفسي ... تقول المرأة : ولست أبرئ نفسي ، فإن النفس تتحدث وتمنى ، ولهذا راودته لأنها أماراة بالسوء .
«إلا ما رحم ربي» أى : إلا من عصمه الله - تعالى - ...

ثم قال : وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام . لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن

يوسف - عليه السلام - عذهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك ، (١) .

والى هنا تكون السورة المكرمة قد حدثتنا عن القسم الأول من حياة يوسف - عليه السلام - القدم الذى تعرض خلاله لألوان من المحن والآلام ، بعضها من إخوته ، وبعضها من امرأة العزيز ، وبعضها من السجن ومرارته ...

ثم بدأت بعد ذلك فى الحديث عن الجانب الثانى من حياته عليه السلام . وهو جاقب الرخاء والعز والتمكين فى حياته ، فقال - تعالى - وقال الملك اتنبنى به أستخلصه لنفسى ... ،

وفى الكلام إيجاز بالحذف ، والتقدير وبعد أن انكشفت الملك براءة يوسف - عليه السلام - انكشافاً تاماً ، بسبب ما سمعه عنه من النسوة ومن امرأة العزيز ، وبعد أن سمع تفسيره للرقب وأعجب به ، كما أعجب بسمو نفسه وإيمانه

بعد كل ذلك قال الملك لخاصته : إتنبنى بيوسف هذا ، ليكون خالصاً لنفسى ، وخاصاً بى فى تصريف أمورى ، وكتبان أسرارى ، وتسيير دفة الحكم فى مملكتى .

والسين والثناء فى قوله (أستخلصه) للبالغة فى الخلوص له ، فهما للطلب كما فى استجاب ، والاستخلص طلب خلوص الشيء من شوائب الشراكة .
فمكان الملك قد شبه يوسف - عليه السلام - بالشيء النفيس النادر ، الذى يجب أن يستأثر به الملك دون أن يشاركه فيه أحد سواه .
والفاء فى قوله (فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) معطوفة على محذوف يفهم من السياق .

والضمير المنصوب فى (كله) يعود على الملك - على الراجح - والمراد اليوم : الزمان الذى حدث فيه التخاطب بين الملك ويوسف .

و (مكنين) صفة تشبه من الفعل مكن - بضم الكاف - ، بمعنى صاحب مكافئة ومرتبعة عظيمة ، يقال : مكن فلان مكانة إذا ارتفعت منزلته ، ويقال : مكنت فلانا من هذا الشيء إذا جعلت له عليه سلطانا وقدره .
(وأمين) بزنة فعيل بمعنى مفعول ، أى : مأمون على ما نكلك به ، ومحل تقننا .
والمعنى : وقال الملك لجنده اتقوني يوصف هذا استخاضه لنفسه فأثروه به إلى مجلسه .

إزداد حب الملك له ونفديره إياه وقال له : إنك منذ اليوم عندنا صاحب الكلمة النافذة ، والمزلة الرفيعة ، التى تجعلنا نأتمك على كل شيء فى هذه المملكة . وتلك المقالة من الملك ليوسف ، هى أولى بشائر عاقبة الصبر وعزة النفس ، وطهارة القلب ، والاستعصام بحبل الله المتين

وهنا طلب يوسف - عليه السلام - من الملك بكرة وإياه أن يجعله فى الوظيفة التى يحسن القيام بأعبائها فقال : وقال . اجعاني على خزائن الأرض لى حفيظ علم ، وال خزائن جمع خزانة - بكسر الخاء وهم لى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشيء ، والمراد بالأرض : أرض مصر :

أى : قال يوسف - عليه السلام - للملك : اجعاني - أيها الملك المتصرف الأول فى خزائن أرض مملكتك ، المشتغلة على ما يحتاج اليه الناس من أموال وأطعمة - لآنى شديد الحفظ لما فيها ، علم بوجوه تصرفها فيما يفيد وينفع ...

فأنت ترى أن يوسف - عليه السلام - لم يسأل الملك شيئا لنفسه من أعراض الدنيا ؛ وإنما طلب منه أن يعينه فى منصب يتمكن بواسطته من القيام برعاية مصالح الأمة وتقدير شئونها لأنها مقبلة على سنوات عجاف ، تحتاج إلى خبرة يوسف وأمانته وكفاءته ، وعلمه ...

قال صاحب الكشف : د وصف يوسف نفسه بالامانة والكفاية اللتين

هنا طلبه الملوك من يولونه ، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إضاء وأحكام الله تعالى - وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعله أن أحدا غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، فطلب التواضع ابتغاء وجه الله - تعالى - لا لحب الملك والدنيا ، (١)

وقال القرطبي ما ملخصه : ودلت الآية - أيضا - على جواز أن يخاطب الإنسان عملا يكون له أهلا .

فان قيل : فان ذلك يمارضه ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة من نهيه عن طلب الإمارة ...

فالجواب : أولا : أن يوسف - عليه السلام - إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره ...

الثاني أنه لم يقل اجعاني على خزائن الأرض لأني حسبب كرم ، وإن كان كذلك ، ولم يقل إني جميل دليح ... وإنما قال إني حفيظ عليم ، فإلها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال .

الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله - تعالى - : فلا تزكوا أنفسكم ... ، (٢)

والخلاصة أن يوسف - عليه السلام - إنما قال ما قال الملك ، وطلب ما طلب منه ، لأنه علم أن هذا المنصب لا يصلح له أحد سواه في ذلك الوقت وفي تلك الظروف ، فهو يريد من ورائه خدمة الأمة لأجر منفعة شخصية لنفسه ...

وما قاله إنما هو من باب التحدث بنعمة الله - تعالى - الذي أعطاه هذه الصفات الكريمة ، والمناقب العالية ، وليس من باب تزكية النفس المحظورة .

(١) تفسير السكشاف ج ٢ ص ٣٢٨

(٢) راجع تفضيل القرطبي ج ٩ ص ٢١٦

هذا ، وقوله - سبحانه - « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » بيان
 لسنة الله - تعالى - في خلقه ، من كونه - سبحانه - لا يضيع أجر الصابرين
 المحسنين أبى : ومثل هذا التمكين العظيم ، مكنا ليوسف في أرض مصر ، بعد
 أن مكث في سجنها بضعة سنين ، لا لذنوب اقترفته ، وإنما لاستعصامه بأمر الله
 وقوله ، يتبوأ منها حيث يشاء ، تفصيل للتمكين الذي منحه الله - تعالى -
 ليوسف في أرض مصر . والتبوأ إتخاذ المسكان للغزل به . يقال : تبوأ فلان
 فلانا منزلا ، أى مكنته منه وأنزله به أبى : ومثل هذا التمكين العظيم ، مكنا
 ليوسف في أرض مصر ؛ حيث هيأنا له أن يتنقل في أماكنها وهما أرضها حيث
 يشاء له التنقل . دون أن يمنعه موانع من الحلول في أى مكان فيها . فالجلة
 الكريمة كفاية عن قدرته على التصرف والتنقل في جميع أرض مصر ، كما
 يتصرف ويتنقل الرجل في منزله الخاص .

وقوله : نصيب برحمتنا من نشاء ، بيان لكمال قدرته ، ونفاذ إرادته
 - سبحانه - أبى : نصيب برحمتنا وفضلنا وعطائنا من نشاء عطاؤه من عباده
 بمقتضى حكمتنا ومشيتنا .

« ولا يضيع أجر المحسنين ، الذين يتقنون أداء ما كلفهم الله بأدائه ، بل
 نوفيهم أجورهم على إحسانهم في الدنيا قبل الآخرة إذا شئنا ذلك .

« ولا أجر الآخرة خير ، وأبهى للذير آمنوا ، بالله - تعالى - إيماننا
 حقا ، وكانوا يتقون ، خالقهم - عز وجل - في كل ما يأثرون وما يندرون ، بأن
 يصونوا أنفسهم عن كل ما يفضبه .

وهكذا كانا الله - تعالى - يوسف على صبره وتقواه وإحسانه ، بما يستحقه
 من خير وسعادة في الدنيا والآخرة .

ثم تطوى السورة بعد ذلك أحداثا تكل معرفتها إلى فهم القارىء وفطنته ،
 فهي لم تحدثنا - مثلاً - عن الطريقة التي اتبعها يوسف في إدارته لخزائن أرض
 مصر ، إكتفاء بقوله « إننى حفيظ عليهم » ، الدلالة على كفاءته وأمانته .

كذلك لم تحدثنا عن أحوال الناس في السنوات السبع العجاف، وفي السنوات
الخنصر، لأن هذا مقرر ومعروف في دنيا الناس.

كذلك لم تحدثنا عن صلة الملك وحاشيته بيوسف، بعد أن صار أميناً على
خزائن الأرض، بل أفسحت المجال كله للحديث عن يوسف، لإنزال الناس
منازلهم، إذ هو صاحب التفسير الصحيح لرؤيا الملك، وصاحب الأفكار
الحكيمة التي أنقذت الأمة من فقر سبع سنوات شداد، وصاحب الدعوة إلى
وحدانية الله - تعالى - وإخلاص العبادة له، بين قوم يشركون مع الله في
العبادة آلهة أخرى.

لم تحدثنا السورة الكريمة عن كل ذلك، في أعقاب حديثها عن تمكين الله
- تعالى - ليوسف في الأرض، وإنما انتقلت بنا بعد ذلك مباشرة إلى الحديث
عن لقاء يوسف بإخوته، وعماد دار بينه وبينهم من محاورات، عن
إكرامه لهم...

قال تعالى: «وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ
مُنْكَرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُم
أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ
فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا
لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا
إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)»

قال الفخر الرازي - رحمه الله - اعلم أنه لما عم القحط في البلاد، ووصل
أيضاً إلى البلدة التي كان يسكنها يعقوب - عليه السلام - وصعب الزمان عليهم
فقال لبيته: إن بهر رجلاً صالحاً يمر الناس - أي يعطيهم الطعام وما هم في
حاجة إليه في ما بينهم، فاذمبوا إليه بدرهمكم، وخذوا منه الطعام، فخرجوا

إليه وهم عشرة وبقي بنيامين مع أبيه - ، ودخلوا على يوسف - عليه السلام - وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف مع إخوته ، وظهور صدق ما أخبر الله - تعالى - عنه في قوله ليوسف حال ما أقدموه في الحب لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ، (١)

وقد جاؤا إليه جميعا - ما عدا بنيامين ، وهو الشقيق الأصغر ليوسف ليحصلوا منه على أكبر كمية من الطعام على حسب عددهم ، وليكون عندهم القدرة على صد العدوان إذا ما تعرض لهم قطاع الطرق الذين يكثرون في أوقات الجذب والجورع .

وعبر عن معرفة يوسف لهم بالجملة الفعلية ، وعن جهلهم له بالجملة الإسمية للانعاز بأن معرفته لهم حصلت بمجرد رؤيته لهم ، أما هم فعدم معرفتهم له كان أمرا ثابتا متعكنا منهم .

قال صاحب الكشاف : لم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقة إبراهيم في سن الحداثة ولا عقادهم أنه قد ملك ، ولذا هابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه ، واهتمامهم بشأته ، وبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقه عليها طريحا في البئر ، حتى لو تخيلوا أنه هو لكذبوا أنفسهم وظننهم ، ولأن الملك بما يبدل الزى ، ويلبس صاحبه من التهييب والاستظام ما يشكر له المعروف ... ، (٢)

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، أن المجاعة حدثت في السبع السنين الشداد شملت مصر وما جاورها من البلاد - كما سبق أن أشرنا - .

كما يؤخذ منها أن مصر كانت محط أنظار المعسرين من مختلف البلاد . بفضل حسن تدبير يوسف - عليه السلام - وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة ، ومهره على مصالح الناس ، ومراقبته لشئون بيع الطعام ، وعدم الاعتماد على غيره

(١) تفسير الفخر الرزى ١٨ ص ١٦٥

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٩ .

ذلك، حتى إن إخوته قد دخلوا عليه رحله، دون غيره من المسئولين في مصر .

وقوله - سبحانه - : ولما جهزهم بجهازهم قال انتوني بأخ لكم من آيكم ، بيان لما فعله يوسف معهم بعد أن عرفهم دين أن يعرفوه .

وأصل الجهاز - بفتح الجيم وكسر هاء قليل - : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ، يقال جهزت المسافر ، أي هيأت له جهازه الذي يحتاج إليه في سفره . ومنه جهاز العروس وهو ما تزف به إلى زوجها ، وجهاز الميت وهو ما يحتاج إليه في دفنه ...

والمراد : أن يوسف بعد أن دخل عليه إخوته وعرفهم ، أكرم وفادتهم . وعاملهم معاملة طيبة جعلتهم يأنسون إليه ، وهيا لهم ما هم في حاجة إليه من الطعام وغيره ، ثم استدرجهم بعد ذلك في الكلام حتى عرف منهم على وجه التفصيل أحوالهم

وذلك لأن قوله لهم : انتوني بأخ لكم من آيكم ، يستلزم أن حديثاً متشوعاً نشأ بينه وبينهم ، عرف منه يوسف ، أن لهم أخاً من آيهم لم يضر معهم وإلا فلو كان هذا الطلب منه لهم بعد معرفته لهم مباشرة ، لشعروا بأنه يعرفهم وهو لا يريد ذلك .

ومن هنا قال المفسرون إن قوله : انتوني بأخ لكم من آيكم ، يقتضي كلاماً دار بينه وبينهم نشأ عنه هذا الطلب ، وما قالوه في توضيح هذا الكلام : ما روى من أنهم بعد أن دخلوا عليه زال لهم : من أقم وشأنكم ؟ فقالوا : نحن قوم من أهل لثام ، جثنا نمتار ، ولنا أب شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب ، فقال لهم : كم عددكم قالوا عشرة ، وقد كنا اثني عشر ، فذهب أخ لنا إلى الهربة فهلك ، وكان أحبنا إلى أبينا ، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه ، هو باق لديه يتسلى به ، فقال لهم حينئذ : انتوني بأخ لكم من آيكم ، (١) .

ويروى أنه قال لهم ذلك بعد أن طلبوا منه شيئاً قائداً عن عددهم ، لأن لهم أخاً لم يحضر معهم ، فأعطاهم ما طلبوه ، واشترط عليهم لإحضار أخيهم هذا معهم ، ليتأكد من صدقهم . (١)

والمعنى : وبعد أن أعطى يوسف إخوته ما هم في حاجة إليه ، وعرف منهم أن لهم أخاً من أبيهم قد تركوه في منازلهم ولم يحضر معهم ، قال لهم : أنا أريدكم في الزيارة القادمة لى ، أن تحضروه معكم لأراه

وقوله : من أبيكم ، حال من قوله : أخ لكم ، أى : أخ لكم حالة كونه من أبيكم ، وليس شقيقاً لكم ، فإن هذا هو الذى أريده ولا أريد غيره .

وهذا من باب المبالغة في عدم الكشف لهم عن نفسه ، حتى لا يكتفوا بمعرفة له بهم ولا به إلا من ذكرهم لإياه له

وقوله : ألا ترون أنى أوف الحكيل وأنا خير المنزلين ، تحريض لهم على الإتيان به ، وترغيب لهم في ذلك حتى ينشطوا في إحضاره معهم .

أى : ألا ترون أنى أكرمت وفادتكم ، وأعطيتكم فوق ما تريدون من الطعام ، وأنزلتكم بلدى منزلاً كريماً

ومادام أمرى معكم كذلك ، فلا بد من أن تأتوني معكم بأخيكم من أبيكم في المرة القادمة ، لكي أؤيد في إكرامكم وعطائكم .

والمراد بإيفاء الحكيل : إتمامه بدون تطفيف أو تنقيص .

وعبر بصيغة الاستقبال : ألا ترون مع كونه قد قال هذا القول بعد تمييزه لهم . للدلالة على أن إيفاءه هذا عادة مستمرة له معهم كلما أتوه .

وجمله : وأنا خير المنزلين ، حالية ، والمنزل : المضيف لغيره . أى : والحال أنى خير المضيفين لمن نزل في ضيافته ، وقد شاهدتم ذلك بأنفسكم .

ثم أتبع هذا الترغيب بالترهيب فقال : (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون) .

أى : لقد رأيتم منى كل خير فى لقاءكم معى هذا ، وقد طلبت منكم أن تصحبوا معكم أخاكم من أبيكم فى لقاءكم القادم معى ، فإن لم تأتوني به معكم عند عودتكم لى ، فإننى لن أبيعكم شيئاً مما تريدونه من الأطعمة وغيرها ، وفضلاً عن ذلك فإننى أحذركم من أن تقرّبوا بلادى فضلاً عن دخولها .

هذا التحذير منه - عليه السلام - لهم ، يشعر بأن إخوته قد ذكروا له بأنهم سيعودون إليه مرة أخرى ، لأن ما معهم من طعام لا يكفّهم إلا لوقت محدود من الزمان .

وقوله - سبحانه - : (قالوا ستراد عنه أباه وإنا لفاعلون) حكاية لما رد به إخوة يوسف عليه .

أى قال إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار أخيه لأبيهم معهم : « ستراد عنه أباه ، أى : سنطلب حضوره معنا من أبيه برفق ولين ومخادعة ومحايلة » وإنا لفاعلون ، هذه المرادة باجتماع لا كل ولا ملل معه وفاء لحقك علينا .

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيه لأبيهم معهم - وهو بنيامين الشقيق الأصغر ليوسف - ، ليس أمراً سهلاً أو ميسوراً ، وإنما يحتاج إلى جهد كبير مع أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم .

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف مع إخوته وهم على وشك الرحيل فقال : « وقال لفتيانہ اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » .

٢ والفتيان : جمع فتى . والمراد بهم هنا من يقومون بخدمته ومساعدته فى عمله .

والبضاعة في الأصل . القطعة الوفيرة من الأموال التي تقتنى للتجارة ، مأخوذة من البضع بمعنى القطع .

والمراد بها هنا : أثمان الطعام الذي أعطاه لهم يوسف . - عليه السلام -

والرجال : جمع رجل ، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب .
والمعنى : وقال يوسف - عليه السلام - لفتيانه الذين يقومون بتلبية مطالبه : أعيذوا إلى رجال هؤلاء القوم - وهم إخوته - الأثمان التي دفعوها لنا في مقابل ما أخذوه منا من طعام ، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم ، لعل هؤلاء القوم عندما يعودون إلى بلادهم ، ويفتحون أمتعتهم ، فيجدون فيها الأثمان التي دفعوها لنا في مقابل ما أخذوه من طعام وغيره .

لعلهم حينئذ يرجعون إلى لنا مرة أخرى ، ليدفعوها لنا في مقابل ما أخذوه .
وكان يوسف - عليه السلام - أراد بفعله هذا جعلهم على الرجوع إليه ومعهم «بنيامين» لأن من شأن النفوس الكبيرة أن تقابل الإحسان بالإحسان وأن تأنف من أخذ المبيع دون أن تدفع لصاحبه ثمنه .

وقوله : لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ، تعاليل لأمره فتياته بجهل البضاعة في رجال إخوته . إذ أن معرفتهم بأن بضاعتهم قد ردت إليهم لا يتم إلا بعد انقلبهم - أي رجوعهم - إلى أهلهم ، وبعد تفرغها عندهم .

وقوله : لعلهم يرجعون ، جواب للأمر . أي : اجعلوها كذلك ، لعلهم بعد اكتشافهم أنهم مادموا لأثمان ما أخذوه ، يرجعون اليها ليدفعوا لنا حقنا . وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عمادار بين يوسف وإخوته بعد أن دخلوا عليه فمرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن طلب منهم بقوة أن يعودوا إليه ومعهم أخوهم لأبيهم . . . فإذا كان بعد ذلك ؟

لقد حكى لنا السورة الكريمة ما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم من محاورات طلبوا خلالها منه أن يأذن لهم في اصطحاب «بنيامين» معهم في رحلتهم القادمة إلى مصر ، كما حكى ما رده أبوه عليهم . قال - تعالى - :

« فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا
 أَخَانًا نَكْتَلْ » وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِيتُكُمْ
 عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَافِظٌ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا
 فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْنِي هَذِهِ
 بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنُيْمِرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَزَدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ
 كَيْلُ يَسِيرٍ (٦٥) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُتَوْتِنُوا مَوْتِقًا مِنَ اللَّهِ
 لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ
 وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
 مُتَفَرِّقَةٍ ، وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ
 تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ
 أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَمْقُوبٍ
 فِضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلَيْهِمْ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) » .

.. وقوله - سبحانه - : « فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ »
 فأرسل معنا أخانا نكتل ... ، حكاية لما قاله لإخوة يوسف لا يزالون
 الثقات بهم .

والمراد بالسكيل : الطعام المسكيل الذي هم في حاجة إليه .
 والمراد بمنعه : الحيلولة بينهم وبينه في المستقبل . لأن رجوعهم بالطعام
 فريضة على ذلك .

والآية السكرية معطوفة على كلام محذوف ، يدرك من السياق والتقدير :
 ترك إخوة يوسف مصر ، وعادوا إلى بلادهم ، بعد أن وعدوه بتنفيذ

ماطلبه منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم ، ودخلوا على أبيهم قالوا له بدون تمل .
 يا أبانا ، لقد حكم عزيز مصر بعدم بيع أى طعام لنا بعد هذه المرة ، إذا
 لم نأخذ معنا أخانا بنيامين ، ليراه عند عودتنا إليه ، فقد قال لنا مهبطاً عند
 مغادرتنا له . « فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » .

وأنت تعلم أننا لا بد من عودتنا إليه ، لجلب احتياجاتنا من الطعام وغيره ،
 فزجرك أن توافقنا على اصطحاب بنيامين ، معنا وإنا له لحافظون ، حفظاً
 تاماً من أن يصيبه مكروه .

والآية الكريمة واضحة الدلالة على أن قولهم هذا لأبيهم . كان بمجرد
 رجوعهم إليه ، وكان قبل أن يفتحوا متاعهم ليبرفوا ما بداخله . . .

وكأنهم فعلوا ذلك ليشرحوه بأن إرسال بنيامين معهم عند سفرهم إلى مصر
 أمر على أكبر جانب من الأهمية ، وأن عدم إرساله سيقرب عليه منع الطعام عنهم .
 وقرأ حمزة والكسائي « فأرسل معنا أخانا يكتل » - بالياء - أى : فأرسله
 معنا ليأخذ نصيبه من الطعام المكال ، لأن عزيز مصر لا يعطى طعاماً لمن كان غائباً .
 وعلى كلا القراءتين فالفعل مجزوم فى جواب الطلب .

وقالوا له « وإنا له لحافظون » ، بالجملة الإسمية ، لتأكيد حفظهم له : وأن
 ذلك أمر ثابت عندهم ثبوتاً لا مناص منه .

ولكن يبدو أن قولهم هذا قد حرك كوامن الأحزان والآلام فى نفس
 يعقوب ، فهم الذين سبق أن قالوا له فى شأن يوسف - أيضاً - « أرسله معنا
 غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » .

لذا نجده يرد عليهم فى استنكار وألم بقوله : « قال هل آمنكم عليه إلا كما
 أمنتكم على أخيه من قبل . . . » .

أى : قال يعقوب لأولاده بعد أن طلبوا منه بإلحاح إرسال أخيه معهم ،
 وبعد أن تعهدوا بحفظه : « أتريدون أن أؤمنكم على ابنى بنيامين ، كما أؤمنكم
 على شقيقه يوسف من قبل هذا الوقت ، فكأن النتيجة التى تعرفونها جميعاً .
 وهى فراق يوسف لى فراقاً لا يعلم مداه إلا الله - تعالى - ١١٦ »

لا ، اننى لا أثق بوعودكم بعد الذى حدث منكم معى فى شأن يوسف .
فلاستفهام فى قوله : هل آمنكم ... ، الإنكار والنفي .

وقوله (فائق خير حافظا وهو أرحم الراحمين) تفریع على استنكاره
لطلبهم لإرسال (بنیامین) معهم ، وتصريح منه لهم بأن حفظ الله - تعالى -
خير من حفظهم .

أى : اننى لا أثق بوعودكم لى بعد الذى حدث منكم بالنسبة ليوسف ،
ولئىما أثق بحفظ الله ورعايته (فائق) - تعالى - (خير حافظا) لمن يشاء
حفظه ، فمن حفظه سلم ، ومن لم يحفظه لم يسلم ، كما لم يسلم أخوه يوسف
من قبل حين اتهمتكم عليه (وهو) - سبحانه - (أرحم الراحمين) خلّقه ،
فأرجو أن يشملنى برحمته ، ولا يفجئنى فى (بنیامین) ، كما فجئت فى شقيقه
يوسف من قبل .

ويبدو أن الأبناء قد اقتنعوا برد أبيهم عليهم ، واشتموا من هذا الرد
إمكان إرساله معهم ، لذا لم يراجعوه مرة أخرى .

قال الآلوسى ما ملخصه : وهذا - أى رد يعقوب عليهم - ميل منه
- عليه السلام - إلا الإذن والإرسال لما رأى فيه من المصلحة ، وفيه
أيضا من التوكل على الله - تعالى - ما لا يخفى ، ولذا روى أن الله - تعالى -
قال وعزتى وجلالى لأردعها عليك إذ توكلت على ... وقرأ أكثر السبعة
(فائق خير حفظا ...) وقرأ حمزة والكسائى وحفص (حافظا ...) وعلى
القراءتين فهو منصوب على أنه تمییز (١) .

ثم اتجه الأبناء بعد هذه المحاورة مع أبيهم إلى امتعتهم ليفتحوها ، ويخرجوا
مابها من زاد حضروا به من مصر ، فكانت المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله :
(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ...)

أى : وحين فتحوا أوعيتهم التى بداخلها الطعام الذى اشتروه من عزيز

مصر . فوجشوا بوجود أثمان هذا الطعام قد ردت إليهم معه ، ولم يأخذها عزيز مصر ، بل دسها داخل أوعيتهم دون أن يشعروا . فدهشوا وقالوا لأبيهم متعجبين : يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ، أى : يا أبانا ماذا نطلب من الإحسان والكرام أكثر من هذا الذى فعله معنا عزيز مصر ؟ لقد أعطانا الطعام الذى نريده ، ثم رد إلينا ثمنه الذى دفعناه له دون أن يخبرنا بذلك .

فما فى قوله : ما نبغى ، استفهامية ، والاستفهام للتعجب من كرم عزيز مصر ، وهى مفعول نبغى ، ونبغى من البغاء - بضم الباء - وهو الطلب . والمراد ببضاعتهم : الثمن الذى دفعوه للعزيز فى مقابل ما أخذوه منه من زاد ، وجملة : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، مستأنفة لتوضيح ما دل عليه الاستفهام من التعجب ، بسبب ما فعله معهم عزيز مصر من مروءة وسخاء .

فكانهم قالوا لأبيهم : كيف لا نعجب وندهش ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا من حيث لا ندرى ومعها الأحمال التى اشتريناها من عزيز مصر لم ينقص منها شئ ؟ وقوله : ونمير أهلنا ، معطوف على مقدر يفهم من الكلام ، أى : (هذه بضاعتنا ردت إلينا) فننتفع بها فى معاشنا ، ونمير أهلنا ، أى : نجلب لهم الميرة - بكسر الميم وسكون الياء - وهى الزاد الذى يؤتى به من مكان إلى آخر . ونحفظ أخانا ، عند سفره معنا من أى مكروه .

« ونزداد » ، بوجوده معنا عند الدخول على عزيز مصر . « كيل بعير ، أى : ويعطينا العزير حمل بعير من الزاد ، زيادة على هذه المرة نظرا لوجود أخينا معنا .

ولعل قولهم هذا كان سببه أن يوسف - عليه السلام - كان يعطى من الطعام على عدد الرؤوس ، حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع فى تلك السنوات الشداد .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ذلك كيل يسير ، يعود إلى الزاد الذى أحضروه من مصر أى : ذلك الطعام الذى أعطانا إياه عزيز مصر طعام

يسير ، لا يكفينا إلا لمدة قليلة من الزمان ، ويجب أن نعد إلى مصر لنأني بطعام آخر .

وفي هذه الجمل المتعددة التي حكها القرآن عنهم ، تحريض واضح منهم
لأبيهم على أن يسمح لهم باصطحاب بنيامين ، معهم في رحلتهم القادمة إلى مصر
ومن مظاهر هذا التحريض : مدحهم لعزير مصر الذي رد لهم أثمان
مشترياتهم ، وحاجتهم الملحة إلى استجلاب طعام جديد ، وتعهدهم بحفظ أخيههم
وإزدياد الأطعمة بسبب وجوده معهم . . .

ولكن يعقوب - عليه السلام - مع كل هذا التحريض والإلحاح ، لم
يستجب لهم إلا على كره منه ، واشترط لهذه الاستجابة ما حكاه القرآن في قوله :
وقال لن أرسله معكم حتى تأتون موثقا من الله لتأقنني به إلا أن يحاط بكم ،
والموثق : العهد الوثوق باليمين ، وجمعه موثيق .

أي : قال يعقوب - عليه السلام - لهم : والله لن أرسل معكم بنيامين ،
إلى مصر ، حتى تحلفوا لي بالله ، بأن تقولوا : والله إن أتيناك به عند عودتنا ،
وإن تخلى عن ذلك ، إلا أن يحاط بنا ، أي : إلا أن نهلك جميعا ، أو أن
نقلب عليه بما هو فوق طاقتنا .

يقولون : أحيط بفلان إذا هلك أو قارب الهلاك ، وأصله من إحاطة
العدو بالمشخص ، واستعمل في الهلاك ، لأن من أحاط به العدو بهلك غالبا .

وسمى الحلف بالله - تعالى - موثقا ، لأنه مما تؤكده اليهود ونحوي
وقد أذن الله - تعالى - بذلك عهد وجود ما يقتضي الحلف به - سبحانه - .
وقوله : لتأقنني به ، جواب لقسم محذوف والاستثناء في قوله ، إلا أن
يحاط بكم ، مفرغ من أعم الأحوال ، والتقدير : لن أرسله معكم حتى تحلفوا
بالله وتقولوا ، والله إن أتيناك به معنأ عند عودتنا ، في جميع الأحوال والظروف
إلا في حال هلاككم أو في حال عجزكم التام عن مدافعة أمر حال بينكم وبين
الإتيان به معكم .

وقوله ، فلما آتوه موثقهم ، أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الموثق باليمين بأن أقسموا له بأن يأتوا بأخيه معهم عند عودتهم من مصر .
« قال ، لهم على سبيل التأكيد والحث على وجوب الوفاء : « الله ، - تعالى -
« على ما نقول ، أنا وأنتم » وكيل ، أى : مطلع ورقب ، وسيجازى الأوفياء
خيرا ، وسيجازى الناقضين لعهدهم بما يستحقون من عقاب .

قال ابن كثير : وإنما فعل ذلك ، لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الخيرة التى لا غنى لهم عنها فبعثه معهم .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما وصى به يعقوب أبناءه عند سفرهم فقال
« وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ... »
أى : وقال يعقوب - الأب العطوف - لأبنائه وهو يودعهم : يا بنى إذا
وصلتم إلى مصر ، فلا تدخلوا كلكم من باب واحد ، وأنتم أحد عشر رجلاً
بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة ، بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب .
قالوا : وكانت أبواب مصر فى ذلك الوقت أربعة أبواب .

وقد ذكر المفسرون أسباباً متعددة لوصية يعقوب هذه لأبنائه ، وأحسن
هذه الأسباب ما ذكره الآلوسى فى قوله : نهاهم عن الدخول من باب واحد ؛
حذراً من إصابة العين - أى من الحسد ، فإنهم كانوا ذوى جهال وشارة حسنة ...
فكأنوا مظنة لأن يعانوا - أى لأن يحسدوا - إذا ما دخلوا كوكبة واحدة ...
ثم قال : والعين حق ، كما صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصح
أيضاً بزيادة « ولو كان شئ يسبق القدر سبقته العين » ...

وقد ورد أيضاً : « إن العين لتدخل الرجل القير ، والجل القدر » .. (١)

وقيل : إن السبب فى وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية ، خوفه عليهم
من أن يستترعى عددهم حرام مدينة مصر إذا ما دخلوا من باب واحد ،

(١) تفسير الآلوسى - بتصريف وتلخيص - ج ١٣ ص ١١٠ .

فيتراعى في أذهانهم أنهم جواسيس أو ما شابه ذلك ، فربما سجنوهم ، أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف - عليه السلام - . . .

وقوله : وما أغنى عنكم من الله شيئا ، اعتراف منه - عليه السلام - بأن دخولهم من الأبواب المتفرقة ، لن يحول بينهم وبين ما قدره الله تعالى - وأرادهم ، وإنما هو أمرهم بذلك من باب الأخذ بالأسباب المشروعة .

أى : ولأنى بقولى هذا لكم ، لا أدفع عنكم شيئا قدره الله عليكم ، ولو كان هذا الشيء قليلا .

إن الحكم لإلا الله ، أى : ما الحكم فى كل شيء إلا الله - تعالى - وحده لا ينازعه فى ذلك منازع ، ولا يدافعه مدافع .
عليه ، وحده ، توكلت ، فى كل أمورى .

وعليه ، وحده ، فليتوكل المتوكلون ، أى المريدون للتوكل الحسنى ، والاعتقاد الصديق الذى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها .
إذ أن كلا من التوكل والأخذ بالأسباب مطلوب من العبد . إلا أن العاقل عندما يأخذ فى الأسباب يحزم بأن الحكم لله وحده فى كل الأمور ، وأن الأسباب ما هى إلا أمور عادية ، يوجد الله - تعالى - معها ما يريد إيجاده ، ويمنع ما يريد منعه ، فهو الفعال لما يريد . ويعقوب - عليه السلام - عندما أوصى أبنائه بهذه الوصية ، أراد بها تعليمهم الإعتدال على توفيق الله ولطفه ، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة ، نادياً مع الله - تعالى - واضع الأسباب ومشرعها . . .

ثم بين - سبحانه - أن الأبناء قد امتثلوا أمر أبيهم لهم فقال : ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوه ، ما كان يغنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها . . .

والمراد بالحاجة هنا : نصيحته لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة ، خوفاً عليهم من الحسد .

ومعنى : قضاها ، أظهرها ولم يستطع كتبها يقال : قضى فلان حاجة نفسه ،
إذا أظهر ما أضمره فيها .

أى : وحين دخل أبناء يعقوب من الأبواب المتفرقة التى أمرهم أبوم
بالدخول منها ، وما كان ، هذا الدخول د يعنى عنهم ، أى يدفع عنهم من قدر
« الله من شيء » ، قدره عليهم ، وليكن الذى حمل يعقوب على أمرهم بذلك ، حاجته
أى رغبة خطرت فى نفسه د قضاها ، أى : أظهرها ووصاهم بها ولم يستطع
إخفاءها لشدة حبه لهم مع عائقه بأن كل شيء بقضاء الله وقدره .

وقوله -- سبحانه -- « ولله لذنو علم لما علمناه ، ننا . من الله -- تعالى --
على يعقوب بالعلم وحسن التدبير .

أى : وإن يعقوب -- عليه السلام -- لذنو علم عظيم ، للشيء الذى علمناه
لما به عن طريق وحينا ، فهو لا ينسى منه شيئاً إلا ما شاء الله .

وقوله « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، أى : لا يعلمون ما لا يعلمه يعقوب
- عليه السلام - من أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله - تعالى -
أو : ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعطاه الله - تعالى - لآبائهم وأصفهائه
من العلم والمعرفة وحسن التأنى للأمر .

وإلى هنا تكون الآيات السكرية قد فصلت الحديث عما دار بين إخوة
يوسف وبين أبيهم فى شأن سفر أخيه معهم فإذا كان بعد ذلك ؟

لقد كان بعد ذلك أن سافر إخوة يوسف إلى مصر ، ومعه « بنيامين »
الشقيق الأصغر ليوسف ، والتقوا هناك بيوسف ، وتكشف هذا اللقاء . عن
أحداث مثيرة ، زاخرة بالإثبات والمفاجآت والمجسورات التى
حكها القرآن فى قوله - تعالى - :

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إني أنا أخوك
فلا تبتئس بما كانوا يعملون » (٦٩) فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى

رَحِلْ أَخِيهِ ، ثُمَّ أَدْنِ مَوْزَنَ أَيُّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا
 وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَقْدُ مِوَاعِ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ
 حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي
 الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤)
 قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وَجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ، كَذَلِكَ نَجْزِي
 الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ
 أَخِيهِ ، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ
 يَشَاءَ اللَّهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا
 إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَمَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ
 يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا
 يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
 الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مِمَّاذَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدهُ ،
 إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ
 تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي
 يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ
 الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَيْكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا
 إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا
 وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) .

وقوله سبحانه ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه... شروع في بيان
 ما دار بين يوسف عليه السلام وبين شقيقه بنيامين بعد أن حضر مع إخوته .

وقوله «آوى» من الإيواء بمعنى الضم . يقال آوى فلان فلاناً إذا ضمه إلى نفسه ، ويقال : تأوت الطير وتآوت ، إذا تضامت ونجست .
وقوله « فلا تبشش » : افتعال من البشش وهو الشدة والضر . يقال بنس - كجمع - فلان بؤساً وبؤساً ، إذا يشتد حزنه وهمه .

والمعنى : رحبن دخل إخوة يوسف عليه ، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه وقال له نظمنا ومواسياً : إني أنا أخوك الشقيق ، فلا تحزن بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى ، فإن الله - تعالى - قد عوض صهرنا خيراً ، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله تعالى - عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ونزل ضيافته وأفاض عليهم الصلاة والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعته على شأنه وما جرى له : لا تبشش أى : لا تأسف على ما صنعوا بي ، وأمره بكنيان هذا عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعته عليه من أنه أخوه وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقية عنده معوزاً مكرماً معظماً^(١)

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف - عليه السلام - مع إخوته ، لى يبقى أخاه معه فلا يسافر معهم عند رحيلهم فقال : « فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ... » ، والجهاز كما سبق أن بينا : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ...

والسقاية : إنااء كان الملك يشرب فيه ، وعادة ما يكون من معدن نفيس وقد كان يوسف - عليه السلام - يكال به في ذلك الوقت نظراً لقلّة الطعام وندرته .

وهذه السقاية هي التي أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع أى :

وحين أعطى يوسف لإخوته ما هم في حاجة اليه من زاد وطعام ، أوعز إلى بعض فتية أن يدسوا في متاع أخيه بنيامين درن أن يشعر بهم أحد . .

وقوله : ثم أذن مؤذن أيها العير إنكم لسارقون ، بيان لما قاله بعض أعوان يوسف لإخوته عندما تهبثوا للسفر ، وأوشكوا على الرحيل .

والمراد بالمؤذن هنا: المندى بصوت مرتفع ليعلم الناس ما يريد إعلامهم به . والمراد بالعير هنا: أصحابها . والأصل فيها أنها اسم للإبل التي تحمل الطعام وقيل العير تطلق في الأصل على قافلة الخمر ، ثم تجوز فيها فأطلقت على كل قافلة تحمل الزاد وألوان التجارة .

- أي : ثم نادى مناد على إخوة يوسف - عليه السلام - وهم يتجهزون للسفر ، أو وهم منطلقون إلى بلادهم بقوله : يا أصحاب هذه القافلة قوتفوا حتى يفصل في شأنكم فأنتم متهمون بالسرقة .

قال الآلوسى ما ملخصه : والذي يظهر أن ما فعله يوسف ، من جملة السقاية في رحل أخيه ، ومن إتهامه لإخوته بالسرقة إنما كان بوحى من الله - تعالى - لما علم - سبحانه - في ذلك من الصلاح ، ولما أراد من امتحانهم بذلك ، ويؤيده قوله - تعالى - كذلك كدنا يوسف ، (١)

ثم بين - سبحانه - ما قاله لإخوة يوسف بعد أن سمعوا المؤذن يستوقفهم ويتهمهم بالسرقة فقال - تعالى - قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ،

وتفقدون : من فقد ، وهو غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه . أي : قال لإخوة يوسف بدهشة وفزع لمن فاداهم وأخبرهم بأنهم سارقون : قالوا لهم : ماذا تفقدون - أيها الناس - من أشياء حتى اتهمتنا بأننا سارقون ؟! وهنا رد عليهم المؤذن ومن معه من حراس : قالوا نفقد صواع الملك ، أي : صاعا التي يشرب فيه ، ويكتال به للممترين .

« ولمن جاء به ، أى بهذا الصاع ، أو دل على سارقته .
 « حمل بعير . من الطعام زيادة على حقه كمسكافاة له .
 « وأنا به زعيم ، أى : وأنا بهذا الجعل كفيل بأن أدفعه لمن جاءنا
 بصواع الملك .

ويبدو أن القائل لهذا القول هو المؤذن السابق ، ولعله قد قال ذلك بتوجيه
 من يوسف - عليه السلام -

وهنا نجد إخوة يوسف يردون عليهم ردًا يدل على استنكارهم لهذه التهمة
 وعلى تأكدهم من برائتهم فيقولون : « قالوا نا الله ، لقد علمتم ما جئنا لنفسد في
 الأرض وما كنا سارقين ،

أى . قال إخوة يوسف المنادى ومن معه الذين اتهموهم بالسرقه ، تالله
 يا قوم ، لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا ، أننا ما جئنا إلى بلادكم ، لكي
 نفسد فيها أو نرتكب ما لا يليق ، وما كنا في يوم من الأيام ونحن في أرضكم
 لنرتكب هذه الجريمة . لأنها تضرنا ولا تنفعنا ، حيث إننا في حاجة إلى
 التردد على بلادكم لجلب الطعام ، والسرقه تحسول بيننا وبين ذلك ، لأنكم
 بسببها ستمنعونا من دخول أرضكم . وهذه خسارة عظيمة بالنسبة لنا .

وهنا يرد عليهم المنادى وأعوانه بقولهم : « قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين .
 أى : قال المنادى وأعوانه لإخوة يوسف الذين نفوا عن أنفسهم تهمة
 السرقه ، نفياً تاماً :

إذاً فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك في شريعتكم ، إن وجدنا
 هذا الصواع في حوزتكم ، وكنتم كاذبين في دعواكم أنفسكم ما كنتم سارقين .
 فرد عليهم إخوة يوسف ببيان حكم هذا السارق في شريعتهم بقولهم :
 « قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين . »

والمراد بالجزاء : العقاب الذى يعاقب به السارق في شريعتهم . والضمير
 في قوله « جزاؤه » يعود إلى السارق .

أى قال لإخوة يوسف : جزاء هذا السارق الذى يؤخذ صواع الملك فى رحله ومتماعه أن يسترق لمدة سنة ، هذا هو جزاؤه فى شريعةنا ، قال الشوكانى ما ملخصه : وقوله ، جزاؤه ، مبتدأ ، وقوله ، من وجد فى رحله ، خبر المبتدأ .

والتمقدير : جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد فى رحله - أى استرقاقه لمدة سنة - ، ونسكون جملة ، فهو جزاؤه ، لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها . قال الزجاج وقوله ، فهو جزاؤه ، زيادة فى البيان ، أى : جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير ، (١) .

وقالوا ، جزاؤه من وجد فى رحله ، ولم يقولوا جزاء السارق أو جزاء سرقة ، للإشارة إلى كمال نراهم ، وبرائة ساحتهم من السرقة ، حتى لكأنهم ألسنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقوا بها فى هذا المقام .

وقوله ، كذلك نجزي الظالمين ، يؤكد لما قبله . أى مثل هذا الجزاء العادل وهو الاسترقاق لمدة سنة ، نجزي الظالمين الذين يمتدون على أموال غيرهم وقوله - سبحانه - ، فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، معطوف على كلام محذوف يفهم من المقام .

والتمقدير : وبعد هذه المخاورة التى دارت بين إخوة يوسف وبين الذين اتهمهم بالسرقة وحتى الإخوة بتمشيش أمتعتهم للبحث عن الصواع بداخلها ، فبدأ ، المؤذن بتمشيش أوعيتهم ، قبل أن يفتش وعاء بنيامين ، فلم يجد شيئاً بداخل أوعيتهم .

فلما وصل إلى وعاء بنيامين وقام بتمشيشه وجد السقاية بداخله ، فاستخرجها منه على مشهد منهم جميعاً .

ويبدو أن هذا الحوار من أوله كان بمشهد ومرأى لمن يوسف - عليه

(١) تفسير فتح القدير للإمام الشوكانى ج ٣ ص ٤٣ .

السلام - ، وكان أيضا بتدبير وتوجيه منه للمؤذن ومن معه ، فهو الذى أمر المؤذن بأن ينادى : أيتها العير إنكم لسارقون ، ، وهو الذى أشار عليه بأن يسألهم عن حكم السارق فى شريعتهم ، وهو الذى أمره بأن يبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل أن يفتش وعاء شقيقه بنيامين ، دفعا لالتهمة ، ونفيا للشبهة ...

روى أنه لما بلغت التوبة إلى وعاء بنيامين انفتحه قال يوسف - عليه السلام - : ما أظن هذا أخذ شيئا ؟ فقالوا : والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله ، فإنه أطيب أنفسك وأنفسنا ففعل ، (٢) .

ويطوى القرآن ما اعترى لإخوة يوسف من دهشة وخزي ، بعد أن وجدت السقاية فى رحل بنيامين ، وبعد أن أقسموا بالله على براءتهم من تهمة السرقة .. يطوى القرآن كل ذلك ، ليترك للعقول أن تتصوره ...

ثم يعقب على ما حدث ببيان الحكمة التى من أجلها ألهم الله - تعالى - يوسف أن يفعل ما فعل من دس السقاية فى رحل أخيه ، ومن سؤال إخوته عن جزاء السارق فى شريعتهم فيقول : كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ... ،

و ، كدنا ، من الكيد وأصله الاحتيال والمكر . وهو صرف غيرك عما يريد به بحيلة . وهو مذموم لأن تحرى به الفاعل الشر والقبیح ، ومحمود لأن تحرى به الفاعل الخير والجميل .

والمراد به هنا النوع المحمود . واللام فى : ليوسف ، للتعليل .

والمراد بدين الملك : شريعته التى يسير عليها فى الحكم بين الناس . والمعنى : مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل يوسف ما يوصله إلى غرضه ومقصده ، وهو احتجاز أخيه بنيامين معه ، بأن ألهمناه بأن يضع السقاية فى رحل أخيه ، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق فى شريعتهم ..

وما كان يوسف ليستطيع أن يحتجز أخاه معه ، لو نفذ شريعة ملك مصر ، لأن شريعته لا تجيز استرقاق السارق سنه كما هو الحال في شريعة يعقوب ، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه .

وما كان يوسف ليفعل كل ذلك التدبير الحكيم في حال من الأحوال ، إلا في حال مشيئة الله ومعونته وإذنه بذلك ، فهو - سبحانه - الذي ألهمه أن يدس السقاية في رحل أخيه ؛ وهو - سبحانه - الذي ألهمه أن يسأل إخوته عن عقوبة السارق في شريعتهم حتى يطبقها على من يوجد صواع الملك في رحله منهم .

فالجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر فضل الله - تعالى - على يوسف حيث ألهمه ما يوصله إلى مقصوده بأحكم أسلوب .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ، كذلك كدنا ليوسف ، أى : مثل ذلك ، سكيد العجيب وهو إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور ... دبرنا وصنفتنا من أجل يوسف ما يحصل به غرضه ...

وقوله ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، أى في حكمه وقضائه ، والكلام استئناف وتعليل لذلك السكيد . كأنه قيل : لماذا فعل ذلك ؟ فقيل : لأنه لم يكن ليأخذ أخاه جزاء وجود الصواع عنده في دين الملك في أمر السارق إلا بذلك السكيد ، لأن جزاء السارق في دينه أن يضاعف عليه الغرم ... دون أن يسترق كما هو الحال في شريعة يعقوب ،

وقوله ، إلا أن يشاء الله ، أى : لم يكن يوسف ليتمكن من أخذ أخيه في حال من الأحوال ، إلا في حال مشيئته - تعالى - التى هى عبارة عن ذلك السكيد المذكور ... (١)

قالوا : وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الاغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعا ثابتا^(١)

وقوله - سبحانه - « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ، استثناف لبيان قدرة الله - تعالى - وسعة رحمته وعظائمه .

أى : نرفع من نشاء رفعه من عبادنا إلى درجات عالية من العلوم والمعارف والعطايا والمواهب ... كما رفعنا درجات يوسف - عليه السلام -

« وفوق كل ذي علم ، من أولئك المرفوعين « عليم » يزيد عنهم في علمهم وفي مكانتهم عند الله - تعالى - ، فهو - سبحانه - « العليم بأحوال عبادنا ، وبمنازلهم عنده ، وبأعلامهم درجة ومكانة .

وقال - سبحانه - « نرفع ، بصيغة الاستقبال ، الإشعار بأن ذلك سنة من سننه الإلهية التي لا تتخلف ولا تبدل ، وأن عطاءه - سبحانه - لا ينفاله إلا الذين نشاء لهم إرادته ومشيتته كما تقتضيه حكمته .

وجاءت كلمة « درجات » ، بالتذكير ، للإشارة إلى عظمها وكثرتها .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف في أعقاب ثبوت تهمة السرقة على أخيه بنيامين فقال - تعالى - « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل »

أى : قال إخوة يوسف - عليه السلام - بعد هذا الموقف المخرج لهم : إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك ، فقد سرق أخ له من قبل - وهو يوسف - ما يشبه ذلك .

وقوله هذا يدل على أن صنيعهم بيوسف وأخيه ما زال متمكنا من نفوسهم وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة في مرادهم بقولهم هذا ، ومن بين هذه الروايات ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال في الآية : سرق يوسف - عليه السلام - صنما لجده وكان

هذا الصنم من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه على الطريق ، فعبر إخوته بذلك ، (١)

وقوله : فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ، بيان لموقفه من مقالتهن ، والضمير في : فأسرها ، يعود إلى تلك المقالة التي قالوها .

أى : مع يوسف - عليه السلام - ما قاله لإخوته في حقه وفي حق شقيقه فساد ذلك ، ولكنه كظم غيظه ، ولم يظهر لهم تأثره بما قالوه وإنما رد عليهم بقوله : بل أنتم ، أيها الأخوة ، شر مكانا ، أى : موضعا ومزلا ممن نسبتهم إلى السرقة وهوى ، لأنكم أنتم الذين كذبتم على أبيكم وخذعتموه ، وقتلتم له بعد أن أقيتم في الحب ، لقد أكله الذنب .

، والله - تعالى - أعلم ، معنى ومنكم ، بما تصفون ، به غيركم من الأوصاف التي يخالفها الحق ، ولا يؤيدها الواقع .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوا ليوسف على سبيل الرجاء والاستعطاف لكي يطلق لهم أخاهم حتى يعود معهم إلى أبيهم فقال : : قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين .

أى : قال إخوة يوسف له على سبيل الاستعطاف : يا أيها العزيز ، الذي أكرمنا وأحسن إلينا ، إن ، أخانا هذا الذي أخذته على سبيل الاسترقاق لمدة سنة ، قد تولا من خلفه في بلادنا ، أبا شيخا كبيرا ، متقدما في السن ، وهذا الأب يحب هذا الابن حبا جما فإذا كان ولا بد من أن تأخذ واحدا على الاسترقاق بسبب هذه السرقة فخذ أحدنا مكانه ، حتى لا تفجع أبانا فيه .
ولما ما طلبنا منك هذا الطلب ، إلا لأنفسنا نراك من المحسنين ، إلينا ، المكرمين لنا ، فسر على طريق هذا الإحسان والإكرام ، وأطلق سراح أخينا بنيامين ليسافر معنا .

ولكن هذا الرجاء والتلطف والاستعطاف منهم ليوسف ، لم يجد شيئاً ، فقد رد عليهم في حزم وحسم بقوله : « قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . . . » ، ومعاذ ، منصوب بفعل محذوف .

أنى : قال يوسف لهم : نعوذ بالله - تعالى - معاذاً ، من أن نأخذ في جريمة السرقة إلا الشخص الذى وجدنا صواع الملك عنده وهو بنيامين . وأقم الذين أفقيتم بأن السارق فى شريعتكم عقوبته استرقاقه لمدة سنة ، فنحن نسير فى هذا الحكم تبعاً لشريعتكم .

ود وإننا إذا لظالمون ، إذا أخذنا شخصاً آخر سوى الذى وجدنا متاعنا عنده والظلم تأباه شريعتنا كما تأباه شريعتكم ، فأثر كوا الجدال فى هذا الأمر الذى لا ينفع معه الجدال ، لأننا لا نريد أن نكون ظالمين .

وبهذا الرد الحاسم قطع يوسف حبال آمال اخوته فى العفو عن بنيامين أو فى أخذ أحدهم مكانه ، فانسحبوا من أمامه تلوهم الكآبة ، وطفقوا يفكرون فى مصيرهم وفى موقفهم من أبيهم عند العودة إليه . . .

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : « فلما استأسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباًكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف . . . » .

وقوله « استأسوا » يتسوا يأسا تاماً فالسين والتاء للمبالغة .

و « خلصوا » من الخلوص بمعنى الانفراد .

و « نجياً » حال من فاعل خلصوا ، وهو مصدر أطلق على المتناجين فى السر على سبيل المبالغة .

والقاء فى قوله « فلما استأسوا منه . . . » معطوفة على محذوف يفهم من الكلام .

والتقدير لقد بذل إخوة يوسف أقصى جهودهم معه ليطلق لهم سراح أخهم بنيامين ، فلما يتسوا يأسا تاماً من الوصول إلى مطلوبهم ، انفردوا عن

الناس ليتشاوروا فيما يفعلونه ، وفيما سيقولونه لأبيهم عندما يعودون إليه ولا يجد معهم بنيامين ، ...

وهذه الجلة الكريمة هي قوله - تعالى - فلما استميا سوا منه خلصوا نجيا .. من أبلغ الجمل التي اشتمل عليها القرآن الكريم ، ومن العلماء الذين أشاروا إلى ذلك الامام الثعالبي في كتاب « الإيجاز والإعجاز » فقد قال : من أراد أن يعرف جوامع الكلم ، ويتنبه لفضل الاختصار وبحيطه ببلاغة الإيجاز ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله - تعالى - في إخوة يوسف : فلما استميا سوا منه خلصوا نجيا ، وهذه صفة اعزاهم جميع الناس ، وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن ، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصيرة ، معاني القصة الطويلة ، (١) وقوله - قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم ... الخ ، بيان لما قاله لهم أحدهم خلال تناجيه مع بعضهم في عزلة عن الناس .

ولم يذكر القرآن اسم كبيرهم ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض مهم ، وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد به « روبيل » لأنه أسنهم ، وذكر بعضهم أنه يهوذا ، لأنه كبيرهم في العقل ...

أى : وحين لاختل إخوة يوسف بعضهم مع بعض لينظروا في أمرهم بعد أن احتجز عزيز مصر أخاهم بنيامين ، قال لهم كبيرهم : ألم تعلموا ، وأنتم تريدون الرجوع إلى أبيكم وليس معكم بنيامين ، أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، عند ما أرسله معكم ، بأن تحفظوا عليه ، وأن لا تعودوا إليه بدونه إلا أن يحاط بكم .
والم تعلموا كذلك أنكم في الماضي قد فرطتم وقصرتم في شأن يوسف ، حيث عاهدتم أباكم على حفظه ، ثم ألقيتهم به في الحب .

والاستفهام في قوله : « ألم تعلموا ... » ، للتفسير أى : لقد علمتم علما يقيناً بعد أياكم عليكم بشأن بنيامين ، وعلمتم علماً يقيناً بخيانتكم العهد أياكم في شأن يوسف ، فبأى وجه ستمودون إلى أياكم وليس معكم أخوكم بنيامين ؟

قال الشوكاني : قوله « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله أى عهدا من الله - تعالى - بحفظ ابنه ورده إليه . ومعنى كونه من الله : أنه يأذنه . وقوله « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » معطوف على ما قبله . والتقدير : ألم تعلموا أن أباكم ... وتعلموا تفريطكم في يوسف ، فقوله « ومن قبل » متعلق بتعلموا .

أى : تعلموا تفريطكم في يوسف من قبل . على أن ما صدر به (١) . وقوله « فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبى أو يحكم الله لي ... » حكاية للقرار الذى اتخذته كبيرهم بالنسبة لنفسه .

أى : قال كبير إخوة يوسف لهم : لقد علمتم ماسبق أن قلته لكم ، فانظروا في أمركم ، أما أنا « فلن أبرح الأرض » أى . فلن أفارق أرض مصر « حتى يأذن لي أبى » ، بمفارقةا ، لأنه قد أخذ علينا العهد الذى تعلمونه بشأن أخى بنيامين .

« أو يحكم الله لي » ، بالخروج منها وبمفارقةا على وجه لا يؤدى إلى نقض الميثاق مع أبى « وهو » سبحانه - « خير الحاكمين » ، لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

ثم واصل كبيرهم حديثه معهم فقال : « ارجعوا ، يا إخوتى » إلى أياكم ، يعقوب « فقولوا » له برقى وتلفظ .

« يا أبانا إن ابنك » بنيامين « سرق » صواع الملك ، ووجد الصواع في

رحله وقولوا له أيضا ، إنما ما شهدنا إلا بما علمنا ، أى : وما شهدنا على أخينا بهذه الشهادة إلا على حسب علمنا وبقيننا بأنه سرق .

(وما كنا للغيب حافضين) أى : وما كنا نعلم الغيب بأنه سبسرقت صواع الملك ، عندما أعطيناك عهدنا ومواثيقنا بأن فأتيك به معنا إلا أن يحاط بنا .
وقولوا كذلك على سبيل زيادة التأكيد ، إن كنت فى شك من قولنا هذا فاسأل (القرية التى كنا فيها) والمراد بالقرية أهلها .

أى : فأرسل من تريد إرساله إلى أهل القرية التى حصلت فيها حادثه السرقة فإنهم سيذكرون لك تفاصيلها .

قالوا ومرادهم بالقرية مدينه مصر التى حدث فيها ما حدث ، وعبروا عنها بالقرية لأنهم يقصدون مكانا معينا منها ، وهو الذى حصل فيه التفطيش لرحلهم ، والمراجعة بينهم وبين عزيز مصر ومعاونيه .

وقوله : (والعير التى أقبلنا فيها) معدلوف على ما قبله .

أى : اسأل أهل القرية التى كنا فيها ، واسأل (العير) أى : قوافل التجارة (التى كنا فيها) عند ذهابنا وإيابنا فإن أصحاب هذه القوافل يعلمون ما حدث من ابنك بنيامين .

وقوله (ولنا لصادقون) أى : ولنا لصادقون فى كل ما أخبرناك به ، فكن وانقا من صدقنا .

وقد ختم كبيرهم كلامه بهذه الجملة ، زيادة فى تأكيد صديقتهم ، لأن ما ضيغهم معه يبحث على الرينة والشك ، فهم الذين قالوا له قبل ذلك فى شأن يوسف : (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ولنا له الحافظون) ثم ألغوا به فى الحب ، (وجاؤا أباهم عشاء يبكون ...) وإلى هنا تكون السودة الكريمة قد صارت بأسلوب حافل بالإثارة والمجاورة ، والأخذ والرد ، والترغيب والترهيب ...
مادار بين يوسف وإخوته عندما قدموا إليه للمرة الثانية ومعهم شقيقه (بنيامين) .

فماذا كان بعد ذلك ؟ لقد كان بعد ذلك أن عاد الإخوة إلى أبيهم وتركوا بمصر كبيرهم وأخاهم بنيامين ، ويطوى القرآن الحكيم - على عادته في هذه السورة الكريمة - أثر ذلك على قلب أبيهم المفجوع ، إلا أنه يسوق لنا رده عليهم ، الذي يدل على كمال إيمانه ، وسعة آماله في رحمة الله - تعالى - فيقول :
 قال بل سؤات لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، عسى الله أن ياتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم (٨٣) وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم (٨٤) قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حراً ، أو تكون من الهالكين (٨٥) قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون (٨٦) يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون (٧٨) .

أى : « قال ، يعقوب لبنيه ، الذين حضروا إليه من رحلتهم ، فأخبروه بما هيح أحزانه »

قال لهم : (بل سؤات لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) . أى : ليس الأمر كما تدعون ، ولكن أنفسكم هى التى زينت لكم أمراً أنتم أردتموه ، ففسدوا على ما قلتم صبر جميل ، أى لا جزع معه ، ولا شكوى إلا لله - تعالى -

قال ابن كثير : قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قبص يوسف بدم كذب (بل سؤات لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) .

قال محمد بن إسحاق : لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى ، اتهمهم ، وظن أن ما فعلوه ببنيامين يشبه ما فعلوه بيوسف فقال : بل سؤات لكم أنفسكم أمراً)

وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه ، وصح قوله (بل سؤات لكم أنفسكم أمراً)

والخلاصة أن الذي حمل يعقوب - عليه السلام - على هذا القول لهم ،
المفيد لتشككه في صدق ما أثبتوه لأنفسهم من البراءة ، هو ما ضييعهم معه ، فإنهم
قد سبق لهم أن فجعوه في يوسف بعد أن عادوه على المحافظة عليه .

ولكن يعقوب هنا أضاف إلى هذه الجملة جملة أخرى تدل على قوة أمله
في رحمة الله ، وفي رجائه الذي لا يخيب في أن يجمع شمله بأبنائه جميعا فقال
- عليه السلام - (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم) .
أى : عسى الله - تعالى - أن يجمعنى بأولادى جميعا - يوسف وبنيامين
ورويى - ل الذي تخلف عنهم في مصر - ، إنه - سبحانه - هو العليم بحالى ،
الحكيم في كل ما يفعله ويقضى به .

وهذا القول من يعقوب - عليه السلام - يدل دلالة وضحة على كمال إيمانه ،
وحسن صلته بالله - تعالى - ، وقوة رجائه في كرمه وعطفه ولطفه - سبحانه - .
وكأنه بهذا القول يرى بنور الله الذي غرسه في قلبه ، مالا يراه غيره
بحواسه وجوارحه .

ثم يصور - سبحانه - ما اعتري يعقوب من أحزان على يوسف ، جردها
فراق بنيامين له فقال - تعالى - وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف ،
وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم .

وقوله . يا أسفا ، من الأسف وهو أشد الحزن والتحسر على ما فات من
أحداث . يقال : أسف فلان على كذا يا أسفا ، إذا حزن حزنا شديدا .
وأنه يدل من ياء المتكلم للتخفيف والأصل يا أسفى .
وكظيم بمعنى مكظوم ، وهو الممتلىء بالحزن ولكنه يخفيه من الناس ولا
يبديه لهم .

ومنه قوله - تعالى - (والكاظمين الغيظ) أى : المحضين له . مأخوذ
من كظم فلان السقاء : إذا سده على ما بداخله .

والمعنى : وبعد أن استمع يعقوب إلى ما قاله له أبناؤه ، ورد عليهم ...
إفتابته الأحزان والهموم ، وتجددت في قلبه الشجون ... فتركهم واعتزل
بجلسهم وقال :

« يا أسفا على يوسف ، أى : يا حزنى الشديد على يوسف ، أقبل فهدأ
أوان إقبالك .

(وابتضت) عينا يعقوب من شدة الحزن (على يوسف وأخيه حتى
ضعف بصره ، حيث انقلب سواد عينيه بياضا من كثرة البكاء .

« فهو كظيم ، أى : ممتلىء حزنا على فراق يوسف له ، إلا أنه كان
لهذا الحزن لا يروح به لغيره من الناس .

قالوا : وإنما تأسف على يوسف دون أخويه - بنيامين وروميل -
مع أن الرزة الأحدث أشد على الذئس ...

لأن الرزة في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا والخطوب
ولأن حبه ليوسف كان حبا خاصا لا يؤثر فيه مرور الأموام ...

ولأن من شأن المصيبة الجديدة أن تذكر بالمصيبة السابقة عليها ، وتهمج
أحزانها ، وقد عبر عن هذا المعنى متمم بن نويرة في رثائه لأخيه مالك فقال :

لقد لامنى عند القبور على البسكا رفيقى لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر رأيت له قبر ثوى بين اللوى واندكادك
فقلت له : إن الشجى يبعث الشجى فدعنى ، فهذا كله قبر مالك

وقال صاحب الكشاف . فإن قلت : كيف جاز للنبي الله يعقوب أن يبلغ به
الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ...

ولقد بكى النبي - صلى الله عليه وسلم - على ولده إبراهيم وقال : إن العين
تدمع ، والقلب يحزن . ولا نقول إلا ما رضى ربنا ، ولما بفراقك يا إبراهيم
لحزونون .

ولنما الجزع المذموم ما يقع من الجبهة من الصياح والنياحة ، واطم "صدور
والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولده ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : ما رأيت الله
جعل الحزن عارا على يعقوب ، (١) .

ثم يحكى القرآن مآثله أبناء يعقوب له ، وقد رأوه على هذه الصورة من الهم
والحزن فيقول : « قالوا تا الله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون
من الهالكين » .

قال الشوكاني : قوله « تفتأ » أى : لا تفتأ ، لحذف حرف النفي لأن الهم
قال السكسائي : فتأت وفتئت أفعل كذا : أى ما زلت أفعل كذا .

وقال الفراء : إن لام مضرة . أى لا تفتأ ومنه قول الشاعر :
فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأرصالي
أى : لا أبرح قاعدا ، (٢)

و « حرضا ، مصدر حرض . كتمعب - والحرض : الإشراف على الهلاك
من شدة الحزن أو المرض أو غيرهما .

والمعنى : قال أبناء يعقوب له بعد أن سمعوه وهو يتحسر على فراق
يوسف له : تا الله - يا أبانا - ما يزال تذكر يوسف بهذا الحنين الجارف ،
والحزن المضى ، حتى تكون حرضا : أى : مشرفا على الموت لطول مرضك .

« أو تكون من الهالكين » المفارقة لهذه الدنيا .

وهنا يرد عليهم الأب الذى يشعر بغير ما يشعرون به من ألم وأمل ...
بقوله : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعملون » .

و « البث » ما ينزل بالإنسان من مصائب يعظم حزن صاحبها بسببها . حتى

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ٤٨ .

أنه لا يستطيع إخفاء هذا الحزن ، وأصله التفريق وإثارة الشئ . ومنه قولهم :
بنت الريح التراب إذا فرقتة .

قالوا : والإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان حزنا ، وإذا لم يقدر على كتمه كان بشا ...

والمعنى : قال يعقوب لأولاده الذين لاموه على شدة حزنه على يوسف :
إنما أشكو وبكى ، أى : همى الذى انطوى عليه صدرى ، إلى الله ، - تعالى -
وحده ، لا إلى غيره ، فهو العليم بحالى ، وهو القادر على تفريج كربى ، فاطر كوفى
وشأنى مع ربى وخالقى . فإنى أعلم من الله ، أى : من لطفه وإحسانه ووثوبه
على الصبر على المصيبة ، ما لا تعلمون ، أنتم ، ولأنى لأرجو أن يرحمنى وأن يطفىئ
بى ، وأن يجمع شملى بمن فارقتى من أولادى ، فإن حسن ظنى به - سبحانه - عظيم .

قال صاحب الظلال : وفى هذه الكلمات - التى حكها القرآن عن يعقوب -
عليه السلام - ، يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية فى هذا القلب الموصول ، كما
تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ، ولأنها الباهر .

إن هذا الواقع الظاهر المبتس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذى
يقطع الرجاء من حياته فضلا على عودته إلى أبيه ... إن هذا كله لا يؤثر شيئا
فى شعور الرجل الصالح بربه ، فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلمه
هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة

وهذه قيمة الإيمان بالله ...

إن هذه الكلمات ، وأعلم من الله ما لا تعلمون ، تجلوه هذه الحقيقة بما لا تملك
كلماتنا نحن أن تجلوها . وتعرض مذاقا يعرفه من ذاق مثله ، فيدرك ماذا تعنى
هذه الكلمات فى نفس العبد الصالح يعقوب ...

والقلب الذى ذاق هذا المذاق ، لا تبلغ الشدائد منه - مهما بلغت - إلا أن
يتعمق البس والمشاهدة والمذاق ... (١) .

(١) فى ظلال القرآن ج ١٣ ص ٢٠٢٦ .

ثم يمضى يعقوب - عليه السلام - في رده على أولاده ، فيأمرهم أن يواصلوا بهم عن يوسف وأخيه ، وأن لا يقنطوا من رحمة الله فيقول : يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله لأنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

والتحسس : هو طلب الشيء بطريق الخواص بدقة وحكمة وصبر على البحث .
 أي : قال يعقوب لأبنائه : يا بني اذهبوا إلى أرض مصر وإلى أى مكان تتوقعون فيه وجود يوسف وأخيه فتحسسوا ، أمرهما ، وتخبروا خبرهما ، وتعرفوا نياهما بدون كلل أو ملل .

وفي التعبير بقوله فتحسسوا ، إشارة إلى أمره لهم بالبحث الجاد الحكيم المتأنى ، ولا تيأسوا من روح الله ، أي : ولا تقنطوا من فرج الله وسعة رحمته وأصل معنى الروح التنفس : يقال : أراح الإنسان إذا قنفس ، ثم استعير لحلول الفرج .

وكلمة روح ، -- بفتح الراء -- أدل على هذا المعنى ، لما فيها من ظل الاسترواح من الكرب الخافق بما تنقسمه الأرواح من رحمة الله .

وقوله : لأنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، تعليل لحضهم على التحسس أي : لا تقصروا في البحث عن يوسف وأخيه ، ولا تقنطوا من رحمة الله ، فإنه ، لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، لعدم علمهم بالله تعالى - وبصفاته وبعظيم قدرته ، وبواسع رحمته ...

أما المؤمنون فإنهم لا يئأسون من فرج الله أبداً ، حتى ولو أحاطت بهم الكروب ، واشتدت عليهم المصائب

واستعجاب الأبناء النصيحة أبيهم ، فأعدوا علمتهم للرحيل إلى مصر للمرة الثالثة ، ثم ساروا في طريقهم حتى دخلوها ، وانتقوا بمنزلة مصر الذى احتجز أخاه بنيامين ، وتحكى السورة الكريمة ما دار بينهم وبينه فتقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ، وَجِئْنَا

ببضاعة مُزجاة فأوف لنا السكيلَ وتصدق علينا إن الله يجزي
 المتصدقين (٨٨) قال هل علمتم ما فعلتم يوسف وأخيه إذ أنتم
 جاهلون (٨٩) قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى
 قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر
 المحسنين (٩٠) قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين (٩١)
 قال لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين (٩٢)
 اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجهه أبى يأت بصيرا ، وأتوني بأهلكم
 أجمعين (٩٣) ولما فصلت العير قال أبوم إنى لأجد ريح يوسف لولا
 أن تقتدون (٩٤) قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم (٩٥) فلما أن
 جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم إننى أعلم
 من الله ما لا تعلمون (٩٦) قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إننا كنا
 خاطئين (٩٧) قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم (٩٨).

وقوله - تعالى - ولما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر
 وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا السكيل وتصدق علينا حكاية لما قاله
 لإخوة يوسف له ، بعد أن امتثلوا أمر أبيهم ، فخرجوا إلى مصر للمرة الثالثة ،
 ليتحسسوا من يوسف وأخيه ، وليشترؤا من عزيزها ما هم في حاجة إليه من طعام .
 والبضاعة : هى القطعة من المال ، يقصد بها شراء شىء .

والمزجاة : هى القليلة الرديئة التى ينصرف عنها التجار إهمالا لها .
 قالوا : وكانت بضاعتهم دراهم يوفى لا تؤخذ إلا بوضيعة ، وقبل غير ذلك .
 وأصل الإزجاء : السوق والدفع قليلا قليلا ، ومنه قوله - تعالى - وألم تر
 أن الله يجزى سحابا

أى : يرسله رويدا رويدا ...

وسميت البضاعة الرديئة قليلة مزجاة ، لأنها ترد وتدفع ولا يقبلها التجار إلا بأبخس الأثمان .

والمعنى : وقال لإخوة يوسف له بأدب واستعطاف : بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة : يا أيها العزيز ، أى : الملك صاحب الجاه والسلطان والسعة في الرزق .
« مسنا وأهلنا الضر ، أى : أصابنا وأصاب أهلنا معنا الفقر والجذب والهزل من شدة الجوع .

« وجئنا ببضاعة مزجاة ، أى : وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة ردها وينصرف عنها كل من يراها من التجار ، إعمالا لها ، واحتقارا لشأها .
ولما قالوا له ذلك : استدرار لعطفة ، وتحريكاً لمروءته وسخائه ، قبل أن يخبروه بمصائبهم الذى حكاه القرآن في قوله :

(فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ...) أى : هذا هو حالنا شرحناه لك ، وهو يدعو إلى الشفقة والرحمة ، ومادام أمرنا كذلك ، فأتهم لنا كيلنا ولا تنقص منه شيئا ، وتصدق علينا فوق حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة (إن الله يحوز المتصدقين) على غيرهم جزاء كريما حسنا .

ويبدو أن يوسف - عليه السلام - قد تأثر بما أصابهم من ضر وضيق حال ، تأثرا جعله لا يستطيع أن يخفى حقيقته عنهم أكثر من ذلك ، فبادرهم بقوله : (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) .

أى : قال لهم يوسف - عليه السلام - على سبيل التعريض بهم ، والتذكير بأخطائهم (هل علمتم) ما فعلتموه بيوسف وأخيه من أذى وعدوان عليهما ، وقت أن كنتم تجهلون سوء عاقبة هذا الأذى والعدوان .

قالوا : وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه . حتى لكانه يلتمس لهم العذر ، لأن ما فعلوه معه ومع أخيه كان في وقت جهلهم وقصور عقولهم ، وعدم علمهم بيقين ما أقدموا عليه ...

وقيل : نفى عنهم العلم وأثبت لهم الجهل ، لأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم .
والأول أولى وأقرب إلى ما يدل عليه سياق الآيات بعد ذلك : من عفوه
هم ، وطلب المغفرة لهم .

وهنا يعود إلى الإخوة صوابهم ، وتلوح لهم ممات أخيه يوسف ،
فولون له في دهشة وتعجب (أنتك لأنت يوسف) ؟ .

أى : أنتك لأنت أخونا يوسف الذى أكرمنا والذى فارقناه وهو
غير فأصبح الآن عزيز مصر ، والمتصرف فى شئوننا ؟ .

فرد عليهم بقوله (أنا يوسف) الذى تتحدثون عنه ، والذى فعلتم معه
فعلتم

(وهذا أخى بنيامين) الذى ألهمنى الله الفعل الذى عن طريقه احتجزته
دى ، ولم أرسله معكم ...

(قدم من الله) - تعالى - (علينا) حيث جمعنا بعد فراق طويل ، وبدل
والنا من عسر إلى يسر ، ومن ضيق إلى فرج ...

تم علل ذلك بما حكاه القرآن عنه فى قوله (لأنه من يتق ويصبر فإن الله
يضيع أجر المحسنين) .

أى : إن من شأن الإنسان الذى يتق الله - تعالى - ويصون نفسه عن
، ما لا يرضاه ، ويصبر على قضائه وقدره ، فإنه - تعالى - يرحمه برحمته ،
يكرمه بكرمه ، لأنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وذلك
نته - سبحانه - التى لا تتخاف ...

وهنا يتجسد فى أذهان إخوة يوسف ما فعلوه معه فى الماضى ، فينتابهم
نوى والخبيل ، حيث قابل إساءتهم بالإساءة بالإحسان عليهم ، فقالوا له فى
تعطاف وتذلل : (تا الله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لحاضنين) أى :
بم بالله - تعالى - لقد اختارك الله - تعالى - لرسالته ، وفضلك علينا
تقوى وبالصبر وبكل الصفات الكريمة .

أما نحن فقد كنا خاطئين فيما فعلناه معك ، ومتعدين لما ارتكبناه فى حقك

من جرائمهم ، ولذلك أعزك الله - تعالى - وأذلنا ، وأغناك وأقصرنا ، ونرجو
منك الصفح والعفو . .

فرد عليهم يوسف - عليه السلام - بقوله : لا تثريب عليكم اليوم يغفر
الله لكم وهو أرحم الراحمين .

والتتريب : التعبير والتوبيخ والتأنيب . وأصله كما يقول الألوسي : من
الثوب ، وهو الشحم الرقيق في الجوف وعلى الكرش . . . فاستعير للتأنيب
الذي يمرق الأعراض ويذهب بهاء الوجه ، لأنه يازلة الشحم يبدو الهزال ،
كما أنه بالتأنيب واللوم تظهر العيوب . فالجامع بينهما طريان النقص بعد الكمال ،
أي : قال يوسف لإخوته على سبيل الصفح والعفو يا إخوتي : لا لوم ولا
تأنيب ولا تعيير عليكم اليوم ، فقد عفوت عما صدر منكم في حق وفي حق أخى
من أخطاء وآثام وأرجو الله - تعالى - أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب
وهو - سبحانه - أرحم الراحمين بعباده .

وقوله (لا تثريب) اسم لا النافية للجنس ، و (عليكم) متعلق بمحذوف
خير لا ، و (اليوم) متعلق بذلك الخبر المحذوف .

أي : لا تقريع ولا تأنيب ثابت أو مستقر عليكم اليوم .
وليس التقييد باليوم لإفادة أن التقريع ثابت في غيره ، بل المراد نفيه عنهم
في كل ما مضى من الزمان ، لأن الإنسان إذا لم يوبخ صاحبه في أول لقاء معه
على أخطائه فلا ن يترك ذلك بعد أول لقاء أولى .

ثم انتقل يوسف - عليه السلام - من الحديث عن الصفح عنهم إلى
الحديث عن أبيه الذي أبيضت عيناه عليه من الحزن فقال :

(اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم
أجمعين) .

أي : اذهبوا - يا إخوتي - بقميصي هذا (فالقوه على وجه أبي)

الذي طال حزنه بسبب فراقه له (يأت بصيرا) أى يرتد إليه كامل بصره ،
بعد أن ضعف من شدة الحزن .

(وأتوني) معه إلى هنا ومعكم أهلكم جميعا من رجال ونساء وأطفال .
وقول يوسف هذا إنما هو بوحى من الله - تعالى - فهو - سبحانه -
الذى ألهمه أن إلحاقه فيصه على وجه أبيه يؤدى إلى ارتداد بصره إليه كاملا ،
وهذا من باب خرق العادة بالنسبة لهذين النبيين المكرمين .
واستجاب الإخوة لتوجيه يوسف ، فأخذوا قيصه وعادوا إلى أوطانهم
ويصرد القرآن ما حدث فيقول : (ولما فصلت العير قال أبوه لى لأجد ربح
يوسف لولا أن تفندون) .

و (فصلت العير) أى خرجت من مكان إلى مكان آخر . يقال : فصل
فلان من بلدة كذا فصولا ، إذا جاوز حدودها إلى حدود بلدة أخرى .
و (تفندون) من الفند وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم فى السن
والمعنى : وحين غادرت الإبل التى تحمل لإخوة يوسف حدود مصر ،
وأخذت طريقها إلى الأرض التى يسكنها يعقوب وبنوه ، قال يعقوب - عليه
السلام - لمن كان جالسا معه من أهله وأقاربه ، اسمعوا لى (لى لأجد
ربح يوسف) .

أى : رائحته التى تدل عليه ، ونشير إلى قرب لقائى به .
و (لولا) أن تنسبونى إلى الفند وضعف العقل لصدقتمونى فيما قلت ،
أولولا أن تنسبونى إلى ذلك لقلت لكم لى أشعر أن لقائى بـ يوسف قد
اقترب وقته وحان زمانه .

جواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه .

وقد أشم الله - تعالى - يعقوب - عليه السلام ، ما عبق من القميص من
رائحة يوسف من مسيرة أيام ، وهى معجزة ظاهرة له - عليه الصلاة والسلام -
وقال الإمام مالك - رحمه الله - أوصل الله - تعالى - ربح قيص يوسف
ليعقوب ، كما أوصل ندرش بلقيس ، إلى سليمان قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه .

ولكن المحيطين يعقوب الذين قال لهم هذا القول ، لم يسموا ما شمه ، ولم يجحدوا ما وجده ، فردوا عليه بقولهم : (قالوا تالله إنك لنى ضلالك القديم) .
- قالوا له على سبيل التسلية : إنك يا يعقوب ما زلت غارقا فى خطيئتك القديم الذى لا تريد أن يفارقك ، وهو حبك ليوسف وأملك فى لقائه والإكثار من ذكره ، وتحقيقا .
1. وجده يعقوب من رائحة يوسف ، وحل أو ان الفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله (ولما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم لنى أعلم من الله ما لا تعلمون) .

أى : وحين اقترب أبناء يعقوب من دار أبيهم ، تقدم البشير الذى يحمل قيص يوسف إلى يعقوب ، فالتق القمص على وجهه فماد إلى يعقوب بصره كأن لم يكن به ضعف أو مرض من قبل ذلك .

وهذه معجزة اكرم الله - تعالى - بها نبيه يعقوب - عليه السلام - حيث رد إليه بصره بسبب إلقاء قيص يوسف على وجهه .

وهنا قال يعقوب لأبنائه ولمن أنكر عليه قوله (لنى لأجد ريح يوسف) (ألم أقل) قبل ذلك (لنى أعلم من الله) أى : من رحمته وفضله وإحسانه (ما لا تعلمون) أنتم .

وهنا قال الأبناء لأبيهم فى تذلل واستعطاف : (يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا) .

أى : نضرع إلى الله - تعالى - أن يغفر لنا ما فرط منا من ذنوب فى حقك وفى حق أخيرنا يوسف وبنيامين .

(لانا كنا خاطئين) فى حقك وفى حق أخويننا ، ومن شأن الكريم أن يصفح ويعفو عن اعتراف له بالخطأ .

فكان رد أبيهم عليهم أن قال لهم (سوف أستغفر لكم ربى) أى : سوف أنضرع إلى ربى لئلى يغفر لكم ذنوبكم .

(لانه) - سبحانه - (هو الغفور) أى الكثير المغفرة (الرحيم) أى الكثير الرحمة لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .

وهكذا صورت لنا السورة الكريمة ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يعقوب وبنيه في هذا اللقاء المثير الخافل بالمفاجآت والبشارات .
ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كانت هناك مفاجآت وإشارات أخرى تحققت معها رؤيا يوسف وهو صغير ، كما تحقق معها تأويل يعقوب لها فقد هاجر يعقوب ببنيه وأهله إلى مصر للقاء ابنه يوسف ، وهناك اجتمع شملهم واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك في نهاية القصة فيقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيَّهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)
رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلَأِكِ عَلَيْهِ تَنْبِيْهِ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) .

وقوله - سبحانه - (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) معطوف على كلام محذوف والتقدير :

استجاب لإخوة يوسف لقوله لهم : (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا ، وأنوني بأهلكم أجمعين) فأتوه بأهلهم أجمعين ، حيث رحلوا جميعا من بلادهم إلى مصر ومعهم أبوم ، فلما وصلوا إليها ودخلوا على يوسف ، ضم إليه أبويه وعانقهما عناقا حارا .

وقال للجميع (ادخلوا) بلاد (مصر) إن شاء الله آمنين) من الجوع والخوف .

وقد ذكر المفسرون هنا كلاما يدل على أن يوسف - عليه السلام - وحاشيته

ووجهاً مصر ، عندما بلغهم قدوم يعقوب بأسرته إلى مصر ، خرجوا جميعاً لاستقبالهم كما ذكروا أن المراد بأبويه : أبوه وخالته ، لأن أمه ماتت وهو صغير .

إلا أن ابن كثير قال : قال محمد بن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان ، وأنه لم يقم دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها (ثم قال : وهذا الذي كره ابن جرير ، هو الذي يدل عليه السياق ^(١)) . والمراد بدخول مصر : الاستقرار بها ، والسكن في ربوعها . قالوا : وكان عدد أفراد أسرة يعقوب الذين حضروا معه ليعلموا في مصر ما بين الشمانين والتسعين .

والمراد بالعرش في قوله (ورفع أبويه على العرش) السرير الذي يجلس عليه أي : وأجلس يوسف أبويه معه على السرير الذي يجلس عليه ، تسكراً لهما . وإعلاء من شأنهما .

(وخروا له سجداً) أي : وخر يعقوب وأسرته ساجدين من أجل يوسف ، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم على أنه لون من التحية ، وليس المقصود به السجود الشرعي لأنه لا يكون إلا لله - تعالى - .

(وقال) يوسف متحدثاً بنعمة الله (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ...)

أي : وقال يوسف لأبيه : هذا السجود الذي سجدتموه لي الآن ، هو تفسير رؤياي التي رأيتها في صغري . فقد جعل ربي هذه الرؤيا حقاً ، وأراني تأويلها وتفسيرها بعد أن مضى عليها هذا الزمن الطويل .

قالوا : وكان بين الرؤيا وبين ظهور تأويلها أربعون سنة . والمراد بهذه الرؤيا ما أشار إليه القرآن في مطلع هذه السورة في قوله (يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)

ثم قال يوسف لأبيه أيضا : (وقد أحسن بي) ربى - عز وجل - (إذ
أخرجني من السجن) بعد أن مكثت بين جدوائه بصنع سنين .
وعدى فعل الإحسان بالباء مع أن الأصل فيه أن يتعدى إلى ، لتضمنه
معنى اللطف ولم يذكر نعمة لإخراجه من الجب ، حتى لا يجرح شعور إخوته
الذين سبق أن قال لهم : لا تثرتب عليكم اليوم يغفر الله لكم .
وقوله : وجاء بكم من البدو ، ممطوف على ما قبله تعدادا للنعم الله - تعالى -
أى : وقد أحسن بي ربى حيث أخرجني من السجن ، وأحسن بي أيضا
حيث يسر لكم أموركم . وجمعني بكم فى مصر ، بعد أن كنتم مقيمين فى البادية
فى أرض كنعان بفلسطين .

وقوله : من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى ، أى جمعني بكم من بعد
أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث حملهم على أن يلقوا بي فى الجب ،
وأصل : نزع ، من النزع بمعنى النخس والدفع . يقال نزع الراكب دابته
إذا نخسها ودفعها لتسرع فى سيرها .

رأسند النزع إلى الشيطان ، لأنه هو المؤسوس به ، والدافع إليه ، ولأن
فى ذلك سترا على إخوته وتادبا معهم .
وقوله : إن ربى لطيف لما يشاء - إنه هو العليم الحكيم ، قذيل قصد به
الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله .

أى : إن ربى وخالقي ، لطيف التدبير لما يشاء تديره من أمور عباده ،
رفيق بهم فى جميع شئونهم من حيث لا يعلمون .

لأنه - سبحانه - هو العليم بأحوال خلقه علما تاما ، الحكيم فى جميع أقواله
وأفعاله ثم ختم يوسف - عليه السلام - ثناءه على الله - تعالى - بهذا الدعاء
الذى حكاه القرآن عنه فى قوله : رب قد آتيتنى من الملك ، أى : يارب قد
عطيتنى شيئا عظيما من الملك والسلطان بفضلك وكرمك .

(وعليتنى) - أيضا - شيئا كثيرا (من تأويل الأحاديث) أى : من
تفسيرها وتعبيرها تعبيرا صادقا بتوفيقك وإحسانك .

(فاطر السموات والأرض) أى : خالقهما على غير مثال سابق وهو منصوب على الذماء بحرف مقدر أى : يا فاطر السموات والأرض .
 (أفت ولي) وناصرى ومعينى (فى الدنيا والآخرة) .
 (توفنى) عندما يذكر كفى أجلى على الإسلام ، وأبقى (مسلماً) مدة حياتى .
 (والحقنى) فى قبرى ويوم الحساب (بال صالحين) من الذين والصدقيين والشهداء وال صالحين وحسن أولئك رفيقاً .

وبهذا الدعاء الجامع الذى توجه به يوسف إلى به - تعالى - يختم القرآن الكريم قصة يوسف مع أبيه ومع إخوته ومع غيرهم ممن عاشهم والتقى بهم وهو دعاء يدل على أن يوسف - عليه السلام - لم يشغله الجاه والسلطان ولم يشغله لقاءه عن طاعة ربه ، وعن تذكر الآخرة وما فيها من حساب . .

وهذا هو شأن المصطفين الأخيار الذين نسأل الله - تعالى - أن يحشرنا معهم ، ويلحقنا بهم ، ويوفقنا للسير على نهجهم . . .

* * *

ثم يحتم الله - تعالى - هذه السورة الكريمة بما يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وبما يدخل النسبية على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وبما يفتح له باب الأمل فى النصر على أعدائه . . . فيقول :

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا نَسَأْلُهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْرٍ إِذْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيُّنَ مِنْ آيَةٍ يَعْزُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يَوْمُنَا أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَذِهِ

سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حتى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرَّمْلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لقد كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهَدَىٰ قَوْمًا يَمْنُونَ (١١١) .

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - (ذلك من أنباء الغيب نوحيها إليك) .

يعود على ما ذكره الله - تعالى - في هذه السورة من قصص يتعلق بيوسف وإخوته وأبيه وغيرهم ، أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - في هذه السورة ، وما قصصناه عليك في غيرها (من أنباء الغيب) أى : من الأخبار الغيبية التى لا يعلمها علما قاما شاملا إلا الله - تعالى - وحده . ونحن (فوحى إليك) ونملئك به لما فيه من العبر والعظات .

وقوله : (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) مسوق للتدليل على أن هذا القصص من أنباء الغيب الموحاة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - أى : وما يشهد بأن هذا الذى قصصناه عليك في هذه السورة من أنباء الغيب ، أنك - أيها الرسول الكريم - ما كنت حاضرا مع إخوة يوسف ، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به ، ثم استقر رأيهم على القائه في الجب ، وما كنت حاضرا أيضا وقت أن مكرت امرأة العزيز بيوسف ، وما كنت مشاهدا لتلك الأحداث المتنوعة التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة ، ولكننا أخبرناك بكل ذلك لتقرأه على الناس ، وليتفعلوا بما فيه من حكم وأحكام ، وعبر وعظات .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - في خلال قصة نوح - عليه السلام - .
تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر إن العاقبة للمتقين (١).

وقوله - تعالى - في خلال قصة موسى - عليه السلام - (وما كنت بجاذب
الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) (٢).

وقوله - تعالى - في خلال حديثه عن مريم (ذلك من أنباء الغيب نوحيه
إليك ، وما كنت لديهم إذ ياقون أقلامهم أيهم يكفل مريم . وما كنت لديهم
إذ يختصمون) (٣).

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى
لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن معاصر المن جاء القرآن بقصصهم ، ولم يطلع
على كتاب فيه خبرهم ، فلم يبق لعلمه - صلى الله عليه وسلم - بذلك طريق إلا
طريق الوحى .

ثم ساق - سبحانه - ما يبعث التسلية والتعزية في قلب النبي - صلى الله
عليه وسلم - فقال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) .

أى : لقد جئت - أيها الرسول - للناس بدين الفطرة ، الذى ترتاح له
النفوس وتتقبله القلوب بسرور وافشراح ، ولكن أكثر الناس قد استحوذ
عليهم الشيطان ، فسخ نفوسهم وقلوبهم ، فصاروا مع حرصك على إيمانهم ،
ومع حرصك على دعوتهم إلى الحق على بصيرة ، لايؤمنون بك ، ولا
يستجيبون لدعوتك ، لاستيلاء المطامع والشهوات والأحقاد على نفوسهم .

وفى التعبير بقوله - سبحانه - (وما أكثر الناس . . .) إشعار بأن هناك
قلة من الناس قد استجابت بدون تردد لدعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - ،
فدخلت في الدين الحق ، عن طوعية واختيار .

(٢) سورة القصص الآية ٤٦

(١) سورة هود الآية ٤٩

(٣) سورة آل عمران الآية ٤٤

وقوله (وله حرصت) جملة معترضة لبيان أنه مهم بالحق النبي - صلى الله عليه وسلم - في كشف الحق ، فإنهم سادرون في ضلالهم وكفرهم ، إذ الحرص طلب الشيء باجتهاد قال الألوسي ما ملخصه : سألت قريش واليهود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قصة يوسف ، فنزلت مشروحة شرها وأفيا ، فأمل النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يكون ذلك سبباً في إسلامهم ، فلما لم يفعلوا حزن - صلى الله عليه وسلم - فمراه الله تعالى بذلك (١) .

وقوله (وما نسألم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين) زيادة في تسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي إعلاء شأنه .

أى أنك - أيها الرسول الكريم - ما نسألم على هذا القرآن الذي نتلوه عليهم هدايتهم وسعادتهم من أجر ولو كان زهيدا ضئيلا ، كما يفعل غيرك من السكمان والأخبار والرهبان . . .

وإنما تفعل ما تفعل ابتغاء رضا الله - تعالى - ونشر دينه .

وقوله ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى : ما هذا القرآن الذي تقرأه عليهم إلا تذكير وعظة وهداية للعالمين كافة ، لا يختص به قوم دون قوم ، ولا جنس دون جنس .

قالوا : وهذه الجملة كالتعليل لما قبلها ، لأن التذكير العام لكل الناس ، يتنافى مع أخذ الأجرة من البعض دون البعض ، وإنما تنأى الأجرة إذا كانت الدعوة خاصة وليست عامة . ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين تطالعهم الدلائل والبراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ولكنهم في عصى عنها فقال : (وكأين من آية يرون عليها وهم عنها معرضون) و (كأين) كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى الإستفهامية المنوطة ، ثم تنوسى معنى جزئيتها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير .

والمراد بالآية هنا : العبرة والعظة الدالة على وحدانية الله وقدرته ، يمر بها

هؤلاء المشركون فلا يلتفتون إليها ، ولا يتفكرون فيها ، ولا يتبرون بها ، لأن بصائرهم قد انطمست بسبب استحواذ الأهواء والشهوات والعناد عليها .

قال ابن كثير : ما ملخصه يخبر - تعالى - في هذه الآية عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده ، بما خلقه - سبحانه - في السموات من كواكب زاهرات ، وسيارات وأفلاك ... وفي الأرض من حدائق وجنات ، وجبال راسيات ، ونحار زخرات ، وحيوانات ونبات ... فسبحان الواحد ! لأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية ... (١)

ثم بين - سبحانه - أنهم بجانب غفلتهم وجهالتهم ، لا يؤمنون بإيماناً صحيحاً فقال - تعالى - ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

أى : وما يؤمن أكثر هؤلاء الضالين بالله في إقرارهم بوجوده ، وفي اعترافهم بأنه هو الخالق ، إلا وهم مشركون به في عقيدتهم وفي عبادتهم وفي تصرفاتهم ، فإنهم مع إعترافهم بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله لكنهم مع ذلك كانوا يتفربون إلى أصنامهم بالعبادة ويقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)

والآية تشمل كل شرك سواء أكان ظاهراً أم خفياً ، كبيراً أم صغيراً وقد ساق ابن كثير هنا جملة من الأحاديث في هذا المعنى ، كلها تنهى عن الشرك أيا كان لونه منها قوله - صلى الله عليه وسلم - عندما سئل أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك (ومنها قوله - صلى الله عليه وسلم - (إن الرقى والتهايم والتولة شرك)

ومنها قوله - صلى الله عليه وسلم - ﴿ إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الربا . ﴾

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤١ طبعة دار الشعب .

ومنها قوله - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه - عز وجل - :
يقول الله - تعالى - أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي
غيري ، تركته وشركه ﴿١﴾

فالآية الكريمة تنهى عن كل شرك ، وتدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة
لله رب العالمين .

ثم هددهم - سبحانه - بحلول قارعة بهم تدمرهم تدميراً فقال - تعالى - :
(أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم
لا يشعرون) .

والغاشية : كل ما يغطي الشيء ويستره ، والمراد بها : ما يغشاهم ويغمرهم
من العذاب . والاستمهام للتوبيخ والتفريع .
والمعنى : أفأمن هؤلاء الضالون ، أن تأتيهم عذاب من الله - تعالى - يغشاهم
ويغمرهم ويشمل كل أجزائهم .

وأمنوا أن تأتيهم الساعة فجأة دون أن يسبقها ما يدل عليها ، بحيث
لا يشعرون بإتيانها إلا عند قيامها .

إن كانوا قد آمنوا كل ذلك ، فهم في غمرة ساهون . وفي الكفر والطغيان
غارقون ، فإنه (لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يسير في طريقه الذي
رسمه له ، وأن يدعو الناس إليه فقال : (قل هذه سبيلي ، أدعو إلى الله على
بصيرة أنا ومن اتبعني . . .) والبصيرة : المعرفة التي يتميز بها الحق
من الباطل .

أي : قل - أيها الرسول الكريم - للناس هذه طريقي وسبيلي واحدة
مستقيمة لا توج فيها ولا شبهة ، وهي أني أدعو إلى إخلاص العباداة لله

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٤١ طبعة دار الشعب .

- تعالى - و-هـ ، ببصرة مستنيرة ، وحجة واضحة ، وكذلك أتباعي يفعلون ذلك وإن تكفر عن دعوتنا هذه مهما إعترضتنا العقبات ، واسم الإشارة (هذه) مبتدأ . و (سبيل) خبر ، وجملة (أدعوا إلى الله على بصيرة ...) حالية ، وقد جىء بها على سبيل التفسير للطريقة التي انتهجها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في دعوته .

وقوله (وسبحان الله وما أنا من المشركين) تنزيه لله - تعالى - عن كل مالا يليق به على أبلغ وجه .

أى : وأزوه الله .. تعالى - تنزيها كاملا عن الشرك والشركاء ، وما أنا من المشركين به في عبادته أو ضاعته في أى وقت من الأوقات .

ثم بين .. سبحانه - أن رسالته .. صلى الله عليه وسلم - ليست بدعاً من بين الرسالات السماوية ، وإنما قد سبقه إلى ذلك رجال يشبهونه في الدعوة إلى الله ، فقال - تعالى - (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى)

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - لتبليغ أوامرنا ونواهيها إلى الناس ، إلا رجالاً مثلك ، وهؤلاء الرجال اختصصناهم بوحينا ليبلغوه إلى من أرسلوا إليهم ، واصطفيناهم من بين أهل القرى والمدائن ، لكونهم أصنى عقولا ، وأكثر حلما .

وإنما جعلنا الرسل من الرجال ولم نجعلهم من الملائكة أو من الجن أو من غيرهم ، لأن الجنس إلى جنسه أميل ، وأكثر تفهما وإدراكا لما يليق عليه من أبناء جنسه .

ثم نعى - سبحانه - على هؤلاء المشركين غفلتهم وجهالتهم فقال : (قلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ...)

أى : أوصلت الجاهالة والغفلة هؤلاء المشركين . أنهم لم يتعظوا بما أصاب الجاحدين من قبلهم من عذاب دمرهم تدميراً . وهؤلاء الجاحدين الذين

دمروا ما زالت آثار بعضهم بأقيه وظاهرة في الأرض . وقومك - يا محمد -
يمرون عليهم في الصباح وفي المساء وهم في طريقهم الى بلاد الشام . كقوم
صالح وقوم لوط - عليهما السلام -
فا الجملة توبيخ شديد لأهل مكة على عدم اعتبارهم بسوء مصير من كان
على شاكلتهم في الشرك والجهود .

وقوله (وادار الآخرة) وما فيها من نعيم دائم (خير للذين اتقوا) الله
- تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه .
(أفلا تعقلون) أيها المشركون ما خاطبناكم به فيجعلكم هذا التعقل والتدبر
إلى الدخول في الايمان . ونذركم الكفر والظلمات :
ثم حكى - سبحانه - سنة من سنته التي لا تتخلف ولا تبدل فقال : (حتى
إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ...)
وفي قوله قد (كذبوا) وردت قرأتان سبعتان إحداهما بتشديد الذال
والثانية بالتخفيف .

وعلى القراءتين فالغاية في قوله - تعالى - (حتى إذا استيأس الرسل)
غاية لكلام محذوف دل عليه السياق ، والمعنى على القراءة التي بالتشديد :
لقد أرسلنا رسالنا هداية للناس ، فأعرض الكثيرون منهم عن دعوتهم ،
ووقفوا منهم موقف المشكر والمعاند والمخارب لهدايتهم ، وضاق الرسل ذرعا
بموقف هؤلاء الجاحدين ، حتى إذا استيأس الرسل الكريم من إيمان هؤلاء
الجاحدين ، وظنوا - أي الرسل - أن أقوامهم الجاحدين قد كذبوهم في كل
ما جاءوهم به لكثرة إعراضهم عنهم ، وإيذائهم لهم
أي : حتى إذا ما وصل الرسل الى هذا الحد من ضيقهم بأقوامهم الجاحدين
جاءهم نصرنا الذي لا يتخلف :

والمعنى على القراءة الثانية التي هي بالتخفيف : حتى إذا يتس الرسل من
إيمان أقوامهم يأسا شديدا ، وظن هؤلاء الأقوام أن الرسل قد كذبوا عليهم
فيما جاءهم به ، وفيما هدوهم به من عذاب إذا ما استمروا على كفرهم . .

حتى إذا ما وصل الأمر بالرسول وبالأقوام إلى هذا الحد ، جاء نصرنا الذي لا يتخلف إلى هؤلاء الرسل ، فضلاً منا وكرمنا ...

فالضمير في قوله (كذبوا) بالتشديد يعود على الرسل ، أما على قراءة التخفيف (كذبوا) فيعود إلى الأقوام الجاحدين .

ومنهم من جعل الضمير - أيضاً - على قراءة (كذبوا) بالتخفيف يعود على الرسل ، فيكون المعنى : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ، وظنوا أي الرسل - أن نفوسهم قد كذبت عليهم في تحديد موعد انتصارهم على أعدائهم لأن البلاء قد طال ، ونصبر قد تأخر ... جاءهم - أي الرسل - نصرنا الذي لا يتخلف قال الشيخ القاسمي في بيان هذا المعنى : قال الحسكيني الترمذي : ووجهه - أي هذا القول السابق - أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر أن يتخلف النصر ، لأن تهمة بوعده الله ، بل عن تهمة لنفوسهم أن تكون قد أحدثت حدثاً ينفض ذلك الشرط ، فكان النصر إذا طال أشد البلاء عليهم ، دخلهم الظن من هذه الجهة ،^(١) وهذا يدل على شدة محاسبة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لنفوسهم ، وحسن صلتهم بخالقهم - عز وجل - .

وقوله : سبحانه - « فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » معطوف على ما قبله ، ومتفرع عليه .

أي : جاءهم نصرنا الذي وعدناهم به ، بأن أنزلنا العذاب على أعدائهم ، نتجى من نشاء لإنجاءهم وهم المؤمنون بالرسول ، ولا يرد بأسنا وعذابنا عن القوم المجرمين عند نزولهم بهم .

ثم ختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بقوله : لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، أي : لقد كان في قصص أولئك الأنبياء الكرام وما جرى لهم من أقوامهم ، عبرة وعظة لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة ، بسبب ما اشتمل عليه هذا القصص من حكم وأحكام ، وآداب وهدايات .

« وما كان » هذا المقصود في كتاب الله - تعالى - « حديثا يفترى » أى يختلق .

« ولكن » كان « تصديق الذى بين يديه » من الكتب السابقة عليه ، كالتوراة والإنجيل والزرور ، فهو المجمع على هذه الكتب ، والمؤيد لما فيها من أخبار صحيحة ، والمبين لما وقع فيها من تحريف وتغيير ، والحاكم عليها بالنسخ أو بالتقرير .

« وتفصيل كل شئ » أى : وكان فى هذا الكتاب - أيضا - تفصيل وتوضيح كل شئ . من الشرائع المجملة التى تحتاج إلى ذلك .

« وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » أى : وكان هداية تامة ، ورحمة شاملة ، لقوم يؤمنون به ، ويعملون بما فيه من أمر ونهى ، ويتفعلون بما أشتمل عليه من وجوه العبر والعظات .

وبعد : فهذا تفسير سورة يوسف - عليه السلام - ، تلك السورة الزاخرة بالحكم والأحكام ، والآداب والأخلاق : وبالمجاورات والمجاذلات ، وبأحوال النفوس البشرية فى حبها وبغضها ، وعسرها ويسرها ، وخبرها وشرها ، وعظائها ومنعها وسرها وعلاقتها ، ورضاها وغضبها ، وحزنها وسرورها . . .

أعمال الله تعالى - أن ينفهنا بهدى كتابه ، وأن يجعله شفيعا لنا يوم نلقاه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

فهرس تفسير سورة يوسف

| الصفحة | الآيات المفسرة | رقم الآيات |
|--------|---|------------|
| ٣ | مقدمة | |
| د | تعريف بسورة يوسف | |
| ٢٣ | الر ، تلك آيات الكتاب .. | ١ - ٦ |
| ٢٣ | لقد كان في يوسف وإخوته .. | ٧ - ١٥ |
| ٢٦ | وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم | ١٩ - ٢٢ |
| ٧٠ | وقال نسوة في المدينة .. | ٣٠ - ٣٤ |
| ٧٨ | ثم بدا لهم من بعد ما رأى الآيات .. | ٣٥ - ٤٢ |
| ٨٩ | وقال الملك لى أولاً سبع بقرات .. | ٤٣ - ٤٩ |
| ٩٧ | وقال الملك اتنوني به .. | ٥٠ - ٥٧ |
| ١٠٩ | وجاء إخوة يوسف .. | ٥٨ - ٦٢ |
| ١١٥ | فلما رجعوا إلى أبيهم .. | ٦٣ - ٦٨ |
| ١٢٢ | ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه .. | ٦٩ - ٨٢ |
| ١٣ | قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا .. | ٨٣ - ٨٧ |
| ١٤١ | فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز .. | ٨٨ - ٩٨ |
| ١٠٨ | فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه .. | ٩٩ - ١٠١ |
| ١٥١ | ذلك من أنباء الغيب .. | ١٠٣ - ١١١ |

